أحمد إبراهيم الشريف

طريق الحَلفا

رواية

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

طريق الحلفا

طريق الحلفا

رواية

أحمد إبراهيم الشريف

غلاف: أحمد مراد

الطبعة الأولى: يناير 2019

إبراهيم الشريف، أحمد

طريق الحلفا، رواية

ط1 منشورات الربيع، القاهرة، مصر.

ردمك: 978-977-5221-99-5

رقم الإيداع(مصر): 2018/27132

WWW.ALRABIEPUBLICATIONS.Com

INFO@ALRABIEPUBLICATIONS.Com

MANSHURAT.ALRABIE@GMAIL.COM

002/01140848568

كافة الحقوق محفوظة للناشر ©

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقةٍ، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابيّ مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببضع فقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

طريق الحلفا

رواية

أحمد إبراهيم الشريف

إلى محمد..

كيف تملك كل هذه الطمأنينة؟

مثلَ ساحرٍ، نفخ بائع "الجيلاتي" في زمارته فتسربت منها الأنات الحادة معلنة حضوره، وتسارعت الأقدام الحافية ناحية أول الدرب، وهتف أحد الصبية: بكم الواحدة يا عم؟، وأجاب العجوز شاحب الوجه الذي يتكئ على عربته الخشبية وحماره: بخمسة صاغ، أو بحذاء بلاستيك، أو بصحن ألمونيوم قديم، أو بعظام، واستدرك: لكن عظامًا كثيرة.

سال لعاب الصبية عندما أخرج العجوز قمع بسكويت من كيس بلاستيكي وبملعقة مدببة وبخفة يده وضع عليه الجيلاتي بلونه الأحمر المرمل فذابت الحلاوة فوق البسكويت، وانطلقت السيقان النحيلة للصبية في طريق الحلفا حتى وصلت الجبانة القريبة، ومثل كلاب برية صغيرة أخذوا ينبشون بأيديهم وأقدامهم خلف منامات الموتى وتحت حواف القبور عن عظام تصلح أن تكون ثمنًا لقمع جيلاتي.

بالله اعملوا قبر المليح مليح
شباك بحيرى يخش منه الريح[1]

"فاضل" الذي ترك المدينة وهرب من المستشفى كي يموت وسط الذين ظنهم أهله، مات في وقتٍ صاخبٍ لا يلائم هدوءه الذي عاش به، كأنما جاء من شقته الواقعة على أطراف مدينة بعيدة ليتحول إلى حكاية مُرة مرارة قهوة راكدة يشربها يتيم، "فاضل" بعد صمته الطويل وحضوره الهادئ امتلك يومًا سُمي "بيوم فاضل". الذي حدث في ذلك اليوم الغريب سوف يظل الناس يتحاكون به على مر الزمان؛ ففي القطارات الخربة التي تُخزِّن على جانب السكة الحديد عند الفجر، وفي الصمت المفجع وعندما يشتد البرد ينبت صوت من بين الكراسي الخشبية المهترئة ليحكي عن القلوب الميتة التى يتسرب منها الدم العفن، وفي ساعات العصاري على رمل النيل الأبيض والصيادون يستعدون بشباك صيدهم يقولون ويعيدون في الحكاية ويضيفون ويحذفون، وعندما ينتصف الليل على ولدين يرويان الأرض يقول أحدهما:

- هل تذكر في ليلة مشابهة ما حدث لفاضل؟

فيقاطعه الآخر في حشرجة تليق بالحكاية:

- دع الليلة تمر لا تنقصنا حكايات الوجع.

الأمهات، فقط، يخبئن جزءًا من الحكاية عن أطفالهن حتى لا تيبس قلوبهم.

---

١ - عديد صعيدي.

تسرب خبر موت "فاضل" مع هديل الحمام الحزين بعد الفجر، وقبل أن تعرف الشمس شيئًا عن رحيله كان كل الخلق في كل الدروب المحيطة يعرفون، قالوا: مات بعد صلاة العشاء، لكنهم كتموا الخبر حتى الصباح، وعندما بكت زوجة عمه نهرتها جدته: لا بكاء بالليل، يكفى ما به من شقاء فلا تحرقي الولد بدموعك.

فأنَّت النساء القليلات القابعات حول السرير الذى يكاد يكون فارغًا إلا من رهبة الموت، وجلست جدته عند رأسه وهمست في أذنه بكلمات، ولمحت النساء المنتشرات في الغرفة الدمعات الغاليات تنزل على الخد البارد، ظلت قرابة الساعة حاضنة للرأس المستسلم ومغمضة عينيها، حتى قلقت النسوة وظنن روحها فارقت معه، ومع هذا لم تقو واحدة منهن أن تلمسها أو تهزها أو تنبس بحرف.

بكته كل امرأة كانت تدفس كنكة الشاى في دمسة النار وهى تهدهد طفلًا يقاوم النعاس، وبكته البنات المخفيات وجوههن في الوسائد كلما تذكرن لمعته وبريق عينيه، ونزل سهم الله على الرجال العاجزين خلف أبوابهم لا يفارقونها، فلا أحد يستطيع في هذا الصباح الملبد بالحزن أن يذهب حتى إلى أول الدرب.

مر الوقت بطيئًا على النساء اللواتي يضعن المتاريس خلف البوابة الكبيرة، ثم فاحت رائحة الموت واقتحمت كل الدور في وقت واحد، فهب الرجال واقفين، وقبل صلاة الظهر كانوا يجلسون في الدرب يناقشون كيف سيذهبون به إلى الجبانة وبيت "سليط" يتربصون بالطريق، فلم يمر سوى أسبوع واحد على مقتل "سلمان سليط" على يد "خضير حمدون"

عـم "فاضـل"، ولا يـزال دم القتيـل دافئًـا في القـبر.

المجتمعـون لمناقشـة كيفيـة دفنـه لديهـم ثلاثـة اقتراحـات؛ الأول ذهـاب وفـد محايـد ليحـدث "سـعد سـليط" عـن حرمـة المـوت، فـرد عليهـم وهـو جالـس لـم يعتـدل كما يليـق بحديـث تسـكنه الأرواح: حدثـونى عـن حرمـة الغـدر.

كان الاقـتراح الثـاني أن يدفنـوه في البيـت، تحـت شـجرة الفيكـس، فبكـت النسـاء، ربمـا خشـية مـن أن وجـوده طـوال النهـار في البيـت سيكشـف أسرارهـن الصغـيرة.

والاقـتراح الثالـث أن يعـبروا بـه النيـل للضفـة الغربيـة، فيعطـون الجبانـة ظهورهـم ويدفنونـه في بـلاد الغـرب، فتمتـم الرجـال: وكيـف نهيـل عليـه الـتراب الغريـب؟

ظـل الجسـد ممـددًا عـلى السريـر طـوال النهـار، كانـت رائحـة المـوت تـسري في البيـت وتصبـغ كلَّ شيء حـتى الـكلام القليـل الـذي يمـر كشـبح بـين اثنـين يهمسـان في حـيرة لا يحسـدان عليهـا في هـذا الموقـف الصعـب، فحـين مـا حـل الليـل - وللمـرة الثانيـة في أسـبوع - قـرروا أن يركبـوا طريـق الحلفـا المهجـور الـتي تسـعى بهـم للمقابـر وترسـم طريـق الجبانـات.

تـمَّ كل شيء عـلى عجـل، نفـر قليـل مسـلحون يتقاطـرون خلـف النعـش الـذي يهـم مسرعًـا ربمـا خوفًـا مـن الليـل المصلـوب في كل مـكان، يحبـس الواحـد منهـم أنفاسـه، فهـو لـم يخـرج إلا مكرهًـا، يتمـنى الواحـد فيهـم لـو لـم يكـن موجـودًا في ذلـك اليـوم، أن يكـون مسـافرًا غائبًـا في بـلاد بعيـدة كان سـيدَّعى البطولـة ويصيـح فيهـم: "كيـف تخرجـون بابـن أخيكـم في الليـل؟ أيهـا الجبنـاء لـو كنـت هنـا لحملتـه عـلى ظهـري في قلـب النهـار، ومـررت بنعشـه الطيـب أمـام بيـت الملعـون سـليط"، لكنـه وهـو هنـا الآن يتـوارى

بين النفر القليلين الذين أخرجهم العار وخشية أن تفوح رائحة الجسد الذي حتمًا سيفسد وتملأ بيوتهم ولن تخرج منها أبدًا، يسيرون منكسي الرؤوس يمرون أمام شجرات السنط والصبار التي على رأس الجبانة، كان القبر جاهزا وفاتحا فمه في انتظار فاضل.

بعد أن وسدوه التراب الناعم، ونزلت عليه الحجارة والحصى ومرر أحدهم يديه على الرمل، وقرأ ما تيسر في نفسه، استعجله آخر وهو يلكزه في كتفه: قم يا ابن العم دعنا نرى النور في هذه الليلة التي ليس لها آخر.

وتقاطر النفر القليلون على طريق الحلفا عائدين، يفكرون في الجنازة التى تقتضي أن يظلوا ثلاثة أيام في الشارع يستقبلون المعزين، وتجعل صدورهم عرضة لرصاص بيت سليط الذين لن يُقدّروا حرمة القرآن الذي سيتلى.

**

ربما راحوا في نوم خفيف وربما لا، لكن المؤكد أنهم جميعا دخلوا ديارهم وأنهم استلقوا على فرشهم، وربما أجاب الواحد منهم عن سؤال ألقته عليه امرأة صوتها مشروخ من الحزن عن مكان القبر: كان دفنه بين أمه وأبيه.

**

الفتى الذي جاء كي يموت عند الذين ظنهم أهله لم يكن يعلم أنه سيذهب بلا أثر، فقد امتلأت الباحة الخارجية بهم وبالخبر الذي تسلل إلى مضاجعهم كنعيق غراب، وكندهة بومة مشوهة من على نخلة خربة القلب، الخبر الذى استقر في قلوبهم كرصاصة جعلهم يسقطون أسفل الحيطان المتهالكة

التي تهدلت الآن أكثر، واصطبغ الدرب بلون التراب، وسرت في المكان رائحة الجسد المحترق.

- بيت سليط أخرجوا "فاضل" من القبر وحرقوه.

كلمة قالها صبي يجرى في الدرب لا يعرف مدى ثقلها على النسوة المنتحبات اللواتي يبست قلوبهن الآن، ولا على الرجال الذين نزت أجسادهم بالعرق واشتعلت النار التي أحرقت الجسد المستكين في أرواحهم، الجسد الذي نبش عنه أبناء سليط التراب المبتل بالماء وطرحوه بجانب الحفرة المتهدلة، ربما وقفوا حوله مترددين، ربما همس واحد فيهم أن تراجعوا، لكنهم حسموا أمرهم في النهاية، وتصاعدت رائحة البنزين مصحوبة برائحة احتراق اللحم، ومن بعيد أبصر رجلٌ كان يفتح شباك بيته مصادفة النار فظنها تهاويم ليل، أو ظنها كرامات وليّ، قبل أن يفيق على صوت الرصاص الذي انطلق إلى قلب السماء والنار التى زاد اشتعالها.

**

الغريب أن خضير حمدون عم فاضل وجدوه بعد أيام قليلة ميتًا على قبر "سلمان سليط" منكفئًا على وجهه يسيل الدم من عينيه وفمه، دون أي أثر لجرح ظاهر في باقي جسده، ويومها أقسم سعد سليط أنه لم ير "خضير" ولم يقتله.

لم تحزن "العايقة" زوجة خضير حمدون كما توقع الناس، ظلت "كحلتها" تسيل على رقبتها المشرعة وأثر ابتسامة على جانب فمها، فظنت أم خضير أنها "الفاعلة" فطاردتها بنظرة يسيل دمها من الغضب:

- آباؤك قتلة يا سليلة الدم دسست على ولدي وقتلته.

**

هذا الكلام ليس بداية الحكاية.. ولا حتى نهايتها

العمر الأول

سكك مفروشة بالدم

من مات غريب غسلوه بره

وقروا الفواتح واللي يشيل الله

من مات غريب غسلوه ع البير

وقروا الفواتح واللى يشيل يشيل[2]

القطار القديم الذي يأكل القضبان والفلنكات في طريقه للفرار بعيدًا عن كل المحطات التي استغلته وألقت بصدئها وناسها الموصومين بالسفر ليلًا في جوفه، تُسرع عجلاته وتبطئ حسبما يريد، في الليل ربما يكون خائفًا من شبح ما يتعقبه، فيسرع في جريه أو هكذا يبدو عندما يعبر تحويلة قديمة مرمية على أطراف قرية لا تملك اسمًا.

فكرت في نفسي: "القطارات تحب الحلفا، تزرعها على الجانبين"، حينها تذكرت أبي وحديثه في أخريات حياته عن الحلفا، كان يقول: "القبور تحب الحلفا، كل الطرق التي تؤدي إلى الجبانات مزروعة بها، القبر نفسه تجد الحلفا نبتت في أساسه الطيني"، كان يهز سيجارته في هدوء فيتساقط رمادها قبل أن تأكله الريح ويضيف: "ربما زرعتها الشياطين حتى تعوقنا عن زيارة الأحباب الراحلين"، وتظهر السخرية على وجهه الناشف: "ربما زرعتها الملائكة كي ندرك أن الطريق صعب وشاق، الحمير فقط لا تعوقها الحلفا، تمد رؤوسها ناحية الطريق الذي تعرفه جيدا وتسير، ثم تقف على رأس الجبانة ولا تدخلها، تحركها يمينا تسير، تحركها شمالًا تعدو، لكن أن تريد إدخالها المقابر لن تستطيع أبدًا، تصبح مثل

---

٢ - مفتتحات العمر الأول عديد صعيدي.

فيل إبرهة الأشرم، عند ذلك تتركها تدفس فمها في قلب الحلفا الجافة، وبكل قسوتك أنت تدوس على تراب الميتين وتدخل"، كان أبي قليل الكلام لكنه أصبح ثرثارًا كبيرًا قبل موته.

أتذكر يومها قال لي: "إن الحمير ترى العذاب الذي لا يراه الإنسان"، وسألته: "هل تعتقد ذلك؟" فانعقد جبينه: "أيهما.. العذاب أم رؤية الحمير له؟"، رددت دون اكتراث: "لا.. كون نبات الحلفا إشارة ما".

**

لما ظهر نبات الحلفا في حوض زرع الريحان الذي كنت أضعه في الشرفة، كان لونه الأخضر الفاقع مختلفًا، يجذبني كي أمرر يدي عليه؛ للحلفا رائحة وملمس، الرائحة تشبه رائحة التراب المبتل والملمس ينغصه الشوك الناعم الذي يترك أثره البسيط على راحة اليد، كانت صورة أمي الشابة وأنا الطفل بجانب حوض الريحان، وعندما نبتت "الحلفا" عرفت أن شيئًا ما سيحدث قريبًا.

**

لم تكن أمي مجنونة، فقط كانت تبكي باستمرار، وتحدق دائمًا في النافذة نصف المفتوحة، وتتخيل أن هناك من يطرق الباب، وعليها أن تُسرع لتفتح له، وتعود باكية لتقف أمام النافذة نصف المفتوحة، وتكرر سؤالها: أين يذهب الصبية التائهون؟، وتعتقد أن رائحة "الحلفا" فقط يمكنها أن تدلهم على البيت الذي خرجوا منه، وضاعوا في الظلام.

**

انتبهت فجأة بسبب لسعة البرد التي أصابتني، تيار شديد يتسلل بقوة من نافذة القطار، حاولت أن أتذكر الحديث الذي كنت أديره مع نفسي منذ دقائق لم أستطع أن أسرده بالدقة نفسها ولا بالمنطق ذاته، فقط تذكرت هروبي من المستشفى ومروري السريع على شقتي قبل أن أتجه إلى محطة القطار، وبينما أغلق الباب نظرت مرة أخيرة إلى صورة أمي تحتضن طفلًا رضيعًا لا يعرف أين يلقى عينيه، بينما على ساقها اليسرى بنت تكبر الولد بسنوات قليلة لكنها تعرف كيف تكون قريبة من قلب الأم وابتسامة متسعة تحتوي وجهها كله، وفي المحطة كان قطار بائس يستعد للحركة فألقيت نفسي داخله دون تفكير.

بت البحيرة من قصرها طلت

قالت غريب يا سبعي واتدلت

بت البحيرة من قصرها بانت

قالت غريب يا سبعي وادارت

بعد أن يغادر القطار "ملوي" يتوقف، ربما يختار أكثر مكان مقطوع لا يسمع فيه سوى صوت ضفادع مثارة، ولا يرى في الليل غير أشباح لعيدان قصب منتصبة تتنصت، العيدان تمارس لعبة مع نسيم الفجر الخفيف الذي يَهبُّ كل حين فتتحرك أوراقها، وفي انتظارها لهذا النسيم تتراهن عيدان القصب فيما بينها على وقت مجيئه، وكل عود يعدُّ في سره، وكل واحد يتمنى أن يكسب الرهان.

يدخل القطار على خط "التخزين" كي يمر "الأسباني" السريع الذي لا يمكن أن يتأخر عن ميعاده، تهدأ حركة القطار ونشعر بميل خفيف ناحية اليسار، ثم يسكن تمامًا بعد الفرملة الأخيرة، يتململ النائمون الذين كانت أجسادهم تنتظم على إيقاع حركة القطار.

كان أذان الفجر يمثل الخلفية بالخارج؛ حيث الصوت المشروخ للمؤذن والضوء البين بين، بينما حاول أحد الركاب إحكام غلق نافذة مكسورة، ولما عجز طلب من جاره أن يساعده، فتململ الجار لكنه مجبرًا ضغط على النافذة لأسفل مرة واحدة وهو يقول:

- إنها مكسورة.

ثم سحب بطانية قديمة مهلهلة وغطى رأسه.

مـرت قرابـة سـاعة، والقطـار رابـض مثـل بيـت خـرب، الأجسـاد المتكومـة والمبعـثرة عـلى المقاعـد الخشـبية وخلـف الأبـواب الثقيلـة هـي الواضحـة، النسـاء القليـلات المنتشرات عـلى المقاعد المقلقـة سـحبن غطـاءات رؤوسـهن عـلى وجوههـن، واحـدة فقـط كانـت تجلـس في الصـف نفسـه، أمامـي، نظـرت إليّ، كأنمـا تحـدث جارهـا والتفتـت ناحيـتي، لفـت نظرهـا حـزني الواضـح وصمـتي الممـل، ربمـا قالـت في نفسـها: "يشـبه أحـدًا رأيتـه قبـل ذلـك في قطـار".

انتبهـت إليهـا، كان في نظرتهـا الوحيـدة شيء غريـب شـعرت بـه، وددت لـو سـألتني عـن حـالي، وتمنيـت أن تمـد يدهـا وتسـحب الخـوف مـن قلـبي والقلـق مـن روحـي، وأن أضـع رأسي عـلى كتفهـا وأبـكي، تخيلـت أنهـا تحركـت مـن مكانهـا وجلسـت إلى جانـبي، رغم ملامحهـا غـير الواضحـة بسـبب تلـك الإضـاءة الضعيفـة لكنهـا أمدتـني بحيويـة مـا، مـدت يدهـا ولمسـت جبهـتي المشـتعلة، حكيـت لهـا عـن رحلـتي لكنـني أخفيـت السـبب الحقيقـي قلـت في نفـسي:

- سـوف أحدثهـا عـن الحـب، لكـن مـاذا أقـول لهـا عـن الحـب، كل تجـاربي السـابقة منقوصـة، كان يغيـب عنهـا شيء لـم أعرفـه أبـدًا، كل امـرأة التقيتهـا لـم تقـدر عـلى ثقـب الغشـاء الـذي يحتمـي بـه قلبي .

قلت لنفسي:

- "تـرى مـاذا يكـون اسـمها؟، ربمـا كان اسـمها "حنـان"، يبـدو مـن نظرتهـا أن اسـمها "حنـان"، لا تتحـدث مـع الرجـل الـذي يجلـس بجوارهـا إلا قليـلًا، وضعـتْ وجههـا في زجـاج النافـذة، ربمـا تسـأل نفسـها عـن اسـمي، ملامحـي لا تـشي بـأى اسـم.

في هـذه السـاعة الطويلـة مـن الانتظـار، ورغـم التوتـر الـذي يطيح بداخـلي، كانـت لـدي رغبـة عارمـة لتأمـل النـاس المحيطـين بي، ومـن خـلال الحكايـات المتفرقـة شـاهدت مـن يتعامـل مـع الألـم والإخفـاق والهزيمـة والانكسـار والضيـاع والتـشرد عـلى أنهـا الأمـر الطبيعـي للأشـياء، ورأيـت آخـر يسـكن الـسراب، وثالثًـا يلفـق حكاياتـه كي يـرضى بالوهـم الـذي يخـشى أن يحكيـه في النهـار، وهـا أنـا أجلـس بجانـب شـخص يحـكي فقـط، يحـكي مـن طـرف واحـد ولا ينتظـر أن يسـمعه أحـد، أو أن يشـاركه شـخص مـا الحـوار، يسـأل ويجيـب، يبتسـم ويتأثـر صوتـه بالحكايـة، لـذا فوجـئ أنـني أسـمعه بصـورة جيـدة لـم يكـن يتخيلهـا، وكان قـد حدثـني عـن عقـدة الحكايـة فقـط، وعندمـا أدرك قـدرتي عـلى الاسـتماع قـرر أن يحـكى لي الحكايـة مـن أولهـا، كنـت أبـصر الشـفتين تتحـركان، لكنـني لـم أتذكـر شـيئًا مـن حكايتـه، ابتسـامته وحدهـا ظلـت عالقـة في الفـراغ.

**

كان الكـرسي الخشـبي قاسـيًا جـدًا، فوقفـت وحركـت ذراعـي للأمام والأعـلى، وحاولـت أن أحـرك قدمـي فانتبهـت إلى ذلـك النائـم في الطرقـة رأسـه أسـفل المقعـد الخشـبي وبـاقي جسـده يسـد طريـق الخـروج، حركـت قدمـي وقصـدت أن أمـر مـن أمـام "حنـان"، كمـا أطلقـت عليهـا، كي أرى ملامحهـا عـن قـرب، وصلـت إلى نهايـة العربـة وعـدت إلى بدايتهـا، ثـم طـرأت في ذهـني فكـرة مجنونـة، لمـاذا لا أجلـس في المـكان الـذي تجلـس هـي فيـه؟ في المقعـد المواجـه لهـا مـكان يسـمح لي، شـعرت بـأن كل العيـون مسـلطة عـلي، تضحـك مـن فكـرتي، رفعـت وجهـي في وجوههـم، كانـوا غارقـين في التيـه، فجلسـت.

جلست على الطرف، كانت هي تجلس بجانب النافذة، ذراعها تتكئ على الإفريز المغلق، فتحول الزجاج إلى مرآة تعكس صورة مشوشة لملامح وجهها، كانت سنجابية الوجه، بيضاء، في مثل عمري، بها شيء مكسور لا أعرفه، فقط أحسست به، وفي المرآة المظلمة شاهدت نفسي، كنت نحيلًا مثل مجرم أرقه الخوف من أشباح تخرج من روحه المتعبة، ولي عينا قاتل لكنني أخشى رؤية الدماء.

أنا جلست وهي لم تهتم، فقط نظرت إليَّ نظرة سريعة ثم أشاحت بوجهها ناحية النافذة المظلمة.

**

كان صوت القطار الأسباني القادم من الخلف قويًّا، مفزعًا، هادرًا، كان مضيئًا كقطعة كريستال، لم يرنا نحن المنتظرين على حافة القضبان.

حجر يرسم الذكريات

ساعة الطلوع طلعوا عزاز وملاح

ساعة الرجوع رجعوا على الألواح

ساعة الطلوع طلعوا ملاح عجبة

ساعة الرجوع رجعوا على الخشبة

السادسة إلا الثلث صباحًا في محطة أسيوط، وجدت نفسي خارج القطار وليس معي سوى حقيبة جلدية صغيرة، وكان عليَّ أن أجلس على مقهى كي أتناول دوائي وأرتاح بعض الشيء، شعرت بدفء الشوارع وبالشمس التي بدأت تتسلل إلى منضدتي القريبة من الرصيف، وقلت: منذ متى لم يكن لي حظ مع الشمس، ولم تطهر جسدي وتنقي دمي الذي فسد؟

**

في الطريق تخيلت الناس المرصوصين بمدخل القرية ينتظرونني، صحيح أنني أخفيت عنهم سبب حضوري، لكنهم يعرفون بقدومي، هم عادة يجلسون على الجسر يُضيّعون أوقاتهم ويتحاكون بسيرة الأقربين والبعيدين، يستحضرون الأحياء والموتى في حكاياتهم ويستنطقونهم بما يودون هم أن يسمعوا، لذا من المؤكد أنهم سيكونون على الجسر، ماذا سأقول لهم؟ هل يبدو على وجهي شيء ينم عما في داخلي، أحاول أن أستمد قوتي من الصمت الذي أقمته مع سائق السيارة التي تقلني إلى القرية، الرجل تسيطر عليه خشية ما، لا يريد أن يتحدث إليَّ ولا أنا حاولت.

عندما قررت المجيء لم أعرف ما الذي سأقوله لأعمامي، فكرت أن أفاجئهم بوجودي بينهم، سيرتبكون قليلًا لكنهم سيفرحون، لكنني أعرف مزاجهم السيئ وطباعهم المتنمرة، لذا في اللحظة الأخيرة قررت أن أتصل بعمي "خضير"، أن أقول أي شيء، لذلك قصدت أن يكون شيئًا محايدًا:

- سأزور قبري أبي وأمي.

الطريق ضيق وظهره مكسور، وأنا أغمض عينيّ كلما اقتربت منا سيارة قادمة من الناحية المقابلة، يخيل إليّ أن الاصطدام واقع لا محالة:

- هناك عند الحجر القديم.

قلت ذلك للسائق وأنا أشير بيدي، فغمغم، بينما كانت عيناي تدوران في المكان، لا أحد هنا، ربما يجلسون بالجانب الآخر، لا أحد هناك، في يدي حقيبة صغيرة لا أتذكر الآن ما بداخلها.

**

الحجر القديم استقر على جانب الطريق، منذ مشروع بناء الكوبري الذي اكتمل ولم يكونوا في حاجة إلى الحجر فتركوه، تحول إلى مقعد يجتمع عليه وحوله الحكّاؤون، تشكّل منهم، تحوّل إلى كرسي انتظار وقلق وتوتر، مركز اجتماع التلاميذ في الصباحات الباردة، وحده الحجر يعرف الغادي والرائح، الأسرار والحكايات الحقيقية، الفرح والعذابات، أجيال كاملة شهدها الحجر، كلمات عن الحب والفراق كتبت على جوانبه، قطرات دم جاف، أصبح لونها بنيًّا الآن، بسبب مشاجرة بين تلميذين على فتاة لم تتنبه إلى أي منهما، على الجانب منه مخبأ لقصاصات ورق صغيرة تحوي حرفين يفصل بينهما

سهم أزرق، لون الحبر الذى كُتب به، وعلى حافته وَلَدَتْ "رئيسة بنت سالم" ابنها "علي"، عندما اتكأت عليه من الألم تنتظر السيارة التي ستحملها للمستشفى، صرختْ واحتضنتْ الحجر، وأظافرها من الألم تحفر في الصخر، فصنع الرجال من بطانية قديمة كانت معهم ومن شيلانهم ستارة كبيرة ثم انزلق "علي"، وعلى الحجر استقر رأس "علي" النازف بعد سبع سنين عندما أطاحت به سيارة مسرعة.. فاتكأت "رئيسة" صارخة ويداها تنهشان الحجر.

شعرت بالحجر يتلفت معي يمينًا ويسارًا.. ولم نجد أحدًا.

**

المكان بارد جدًا، دخلت البيت الكبير الواسع الذي تركض حيطانه بعيدًا، وتوافد أقاربي يسلمون ويجلسون، يفسحون أماكن لبعضهم، صنعوا حولي شبه دائرة ضاقت حتى شعرت بأنفاسهم في وجهي، كان الارتباك يبدو على الجميع، هناك شيء وراء هذه العيون جعلهم لا يجلسون على الطريق وأجبرهم على التزام بيوتهم.

جدتي الوحيدة التي احتضنتني بفرح، راعها الشحوب البادي على وجهي و"الطاقية" الصغيرة السوداء التي تسقط حتى أذنيَّ وتلتهمهما، وتخبئهما أسفلها.

آخر مرة جئت إلى هنا كان المكان أكثر حركة وصخبا ودفئا، نساء البيت هن من يفرحن بمجيئي؛ جدتي وزوجات أعمامي وبناتهن وفتيات صغيرات بنات عمومة أيضا في الدرب، أخبرتني زوجة عمي بأن الأمور متوترة بما يكفي بيننا وبين بيت "سليط" بسبب إعادة تقسيم قطعة أرض طرحها النهر هذه السنة، والخوف عشش في قلوب الناس لأنهم يتذكرون

التاريخ الأسود الممتلئ بالدم بين العائلتين.

عندما جلست إلى جدتي، لم تحدثني عما يحدث بين أعمامي وبيت سليط، كانت تعيد ترتيب الأشياء أمامها وتتحدث عن مصر وغربتي هناك:

- بلاد سلطانها الهم، أبوك ذهب إليها ولدًا يملأ عين العاهرة وزيادة وعاد منها تائهًا يبول على نفسه من الحزن، يوم سافر عرفتُ أنه ضاع.

ونظرت إليّ بطرف عينها وتنهدت بوجع:

- قتله الحزن، والمجنونة أمك أصرت أن تأخذه معها، لم تترك فيه شيئًا يعيش من بعدها، كانت من قبرها تمص روحه حتى جف، أصبح جلدًا وعظامًا وعقلًا تائهًا.

قلت، وأنا أحاول ألا أغضبها، لكن معلنًا اعتراضي:

- أمي لم تكن مجنونة.

نفضت ترابًا وهميًا عن ثوبها ورقَّ صوتها من الدمع:

- لا عتب عليها يا وليدي، فراق الضنى ملعون، وابنتها ضاعت من يدها ولم تعد، ربنا يرحمها.

ويعود إليها تعصبها فجأة:

- أنا ألعن في بلاد الناس التي أخذت منى أولادي، حتى البنت "سعاد" سافرت مرة تزور أخاها فعادت بـ"قُصة" على جبهتها، وكلام عن أماكن نظيفة وسهر وسينما، وأصابتنا بالغم عندما رفضت الزواج من "خلف نفادى" خطيبها منذ كانت طفلة تقضي حاجتها في الشارع أمام البيت.

توترت بشدة ورفعت الغطاء من على طعامها ونظرت داخله

وحركته بملعقة في يدها ثم غطته ثانية وأكملت:

- كان جدك مريضًا في أيامه الأخيرة، وعندما وقفت البومة سعاد عند طرف السرير بجانب قدميه وقالت: «لن أتزوج خلف نفادي»، ورأيت العرق الغزير يغرق الجبهة المريضة والعجز يظهر في العينين لأول مرة، عرفت أنه سيموت وأن سعاد تعرف ذلك، لأن هذا الكلام لو حدث في عز صحته لدفنها في مكانها قبل أن تنطق حرفًا.

لم أجد لجدي "حمدون" صورة معلقة على حائط أو مدسوسة بين ورق قديم أو حتى بين حجج الأرض التي تحتفظ بها جدتي، كأنهم نسوه فجأة، أو خشوا أن يخرج من الورق فيؤنبهم وربما يربطهم من أرجلهم، كان أبي يقول:

- إن روحه لم تترك سعاد التي خالفته وتزوجت رجلا غير الذي كان يريده لها، كان يقتل أطفالها بعد ساعات من ولادتهم، فتخرج من بيتها بشعرها المهوش وجبهتها المعصبة ودمها يسيل على قدميها، وتظل تضرب البوابة الخشبية بيديها الضعيفتين من النِفاس وتصرخ وتلطم وجهها وتسبه ثم تذهب لقبره وتظل ترجمه بالحجارة.

ألمح الدمع في عيني جدتي، كأنها كانت تتذكر كل ذلك معي، أقول في نفسي:

- آه لو تعرفين لماذا جئت؟ أم هل تراك تعرفين وتحملين الماضي السبب فيه؟

**

في غرفة أبي بعد أن زارتها جدتي والبنات ونظفوها وفتحوا شبابيكها المغلقة وأطلت شجرة الفيكس التي سمحت لفروعها

الصغـيرة بـأن تتخطـى ذلـك وتشـتبك والشـباك في مسـاحة واحـدة، فكـرت بـأن هنـاك هاجسًـا مـا، إشـارة دفعتـني للخـروج مـن المستشـفى ليـلًا وركـوب القطـار والمجـيء إلى هنـا، خشـية أن أمـوت بعيـدًا.

يخبئ في جيبه ملاكًا

كان خاطري يا حبابي مر العيا تطيبوا

واجيب دواكم من قبل ما تخيبوا

والخيبة حتمت لا بيدك ولا بيده

ودا حكم عادل واللي حكم سيده

مـن زيـاراتي القليلـة إلى القريـة في طفولـتي لا أنـسى لعـبي عـلى ضفـة النهـر لا يشـاركني سـوى المـاء وورد النيل بديدانـه الصغيرة، والشـمس الـتي غـيرت لـوني تمامًـا وجعلتـني مثـل غـراب، كان يحلـو لي أن أظـل تحـت المـاء أختـبر الوقـت الـذي مـن الممكـن أن تحتملـه رئـتي الصغـيرة، ثـم أفكـر في المـوت.

**

- ما الذي تريد جدتي أن أقوله لها؟

تريـدني أن أحـكي عـن خـوفي وهـروبي مـن المستشـفى، وعـن رغبـتي في المـوت قـرب قـبر أمـي الـتي جعلتـني دائمًـا بعيـدًا عنهـا، وأن أشـم رائحـة أبي الـذي ظللـت أتوقـع موتـه سـت سـنوات، وعندمـا تركتـه وعـدت للشـقة الكئيبـة الـتى تقـع عـلى أطـراف المدينـة البعيـدة مـات.

**

أتذكـر وقـوفي في الشرفـة الصغـيرة للمستشـفى ورغبـتي الدائمـة في البـكاء، كنـت أعـد البلاطـات الصغـيرة الممتـدة عـلى طـول الطرقـة الـتي تمثـل خيطًـا طويـلًا فاصـلًا بـين المبـنى والحديقـة الصغـيرة بأشـجار زينتهـا غـير الجميلـة، مـرت أكـثر مـن سـاعتين وأنـا في مـكاني أغافـل الممرضـات المعترضـات عـلى تعـرضي للهـواء

بهذه الطريقة المباشرة، أطفئ الضوء وأتأكد أن الباب مغلق، وأسمع من بعيد زقزقة عصفور وحيد مثلي.

في الشرفة أبتسم قليلًا، لأن حظي كان حسنًا ويمكنني أن أرى الشارع وألمح العربات المسرعة التى تكاد تفر من المكان، هنا توجد بعض الحياة تنبعث من الإضاءة والأسفلت والسيارات الهاربة، لا أتخيل حياتي في الجانب الخلفي من مبنى المستشفى الصامت، أجدني أردد: "حظ حسن، حظ حسن"، أبتسم في سخرية: "الآن أفسر الحظ الحسن بالبقاء مريضًا أنتظر الموت وأنا أشاهد سيارة مسرعة لا ألمح حتى لونها"، وضعتُ يدي على جبهتي التى ارتفعت درجة حرارتها بصورة جنونية.. وطوحت يديَّ في الهواء ثم ثنيتُ جذعي وبصقت في قلب الحديقة.

**

كل هذه الأمور التي جرت لم تحدث فجأة، لكن جاءنى المرض فجأة، سقطتُ في الشارع فحملني العابرون إلى المستوصف القريب، غادرتُ بعد قياس الضغط ونظرات متشككة تطالبني بالتنبه أكثر، سقطتُ مرة ثانية، وبعد تحليل دم والثاني وجدت الشفقة متجسدة في العيون التى تطالبني بالراحة ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بعد أن أخذت الدهشة نصيبها ظللت ليالي طويلة أمام المرآة أتخيل القادم الغريب، أغمض عينيي وأفتحهما فجأة كي أتأكد أنني لا أزال حيًّا.

**

- ما الذي تريد جدتي أن تعرفه بالتحديد؟

أتحرك من خلف المكتب الذي أحرص على أن أجعله متواريًا

بعض الشيء في الظلام، وأقف خلف النافذة نصف المفتوحة، أنتظر، أتأمل، ألمح في البعيد قطًا أبيض تشع عيناه في الظلام، لونه رائق بين الأشياء، الوحيد الذي لا يختلط شيء بلونه في هذا الليل الذي بدأ مبكرًا من قبل العشاء بكثير، أتتبع القط الأبيض الذي يتقافز في هذا الهدوء الحذر، مللت سريعًا فالقط أصبح يأتي بالحركات نفسها بصورة مملة ومستفزة.

عدت إلى المكتب المتواري قليلًا في الظلام، أعتمد على ضوء شاحب لأباجورة قديمة لا أعرف بالضبط متى ظهرت في حياتي، أمسكت ورقة وقلم رصاص وكتبت "قط أبيض، قط أبيض، قط أبيض يقفز بسهولة وأنا لا أستطيع".

الساعة التاسعة موعد عودة جارتي التى لا أعرف عنها شيئًا سوى مواعيد خروجها وعودتها، أتذكرها يوم موت أمي كان ينبعث من شقتها صوت مزعج لفيلم رديء، ها قد وصلت، نظرتُ في العين السحرية وتأملتها من خلال العدسة المقعرة، انبعجت بعض الشيء في المنتصف وساعدت العدسة في جعل وجهها بعيدًا، لكن ملامحها المتعبة واضحة جدًا، بعد أن دخلت استدارت وأغلقت الباب، أسرعت ناحية المطبخ واعتمدت على الظلام ومن الثقب الذى وُجد طبيعيًا في شيش الشباك ألصقت عيني، وَضَعت الأشياء التي لم أتبينها على طاولة المطبخ، وهمت أن تفتح أزرار البلوزة ثم غيرت رأيها، وأطفأت الضوء وانسحبَت.. فانسحبتُ.

جلستُ في الظلام، ثم عدتُ وأضأت الشقة كلها، أغلقت الأبواب ثم فتحتها جميعًا على مصراعيها.

**

- هل تعرف جدتي ما عجز أعمامي عن إدراكه؟

هـل تعـرف أنـي في الصبـاح غـادرت شـقتي في القاهـرة وأنـي في نهايـة الشـارع أحسسـت بأنـي نسـيت شـيئًا مـا، لـم أتذكـره، لكـن إحسـاسي بالنسـيان جـاء مـن الخـواء الـذى وجدتـه في جيـبي، فراجعـت نفـسي وتأكـدت مـن المحفظـة والمفاتيـح، وقلـت: "لا أملـك شـيئًا آخـر".

في محطـة المـترو القريبـة وفي العربـة الأخـيرة أسرعـت بالركـوب قبـل أن يغلـق البـاب، اتكـأت عـلى البـاب المقابـل الـذي لـن يفتح قبـل خمـس محطـات، ولمحـت الوجـوه الصامتـة المتكلمـة، في لحظـة شـعرت بأنـي أكثرهـم كآبـة وحزنًـا، هـم عـلى الرغـم مـن ضيقهـم البـادي يحملـون شـيئًا مـن الأمـل يختـبئ تحـت جلودهـم الجافـة.

خـارج المـترو تحسسـت الـورق الـذي أحملـه أسـفل ذراعـي، توتـرت قليـلًا، ثـم تنفسـت ببـطء وأسرعـت في اتجـاه المبـنى الضخـم، قـرأت الكتابـة المحفـورة عـلى الواجهـة.. ودخلـت.

**

ألقيـت جسـدي عـلى كـرسي جلـدي أسـود وغصـت فيـه، شـعرت بـأن روحـي تتـسرب إلى هـذا الجلـد المحيـط بي، كنـت أنتظـر دوري الـذي سـيأتي بعـد قليـل، وفجـأة شـعرت بالخـوف وتمنيـت ألا يـأتي هـذا الـدور أبـدًا، وددت أن أغـادر هـذا المـكان ولا أعـود، تمنيـت أن أختفـي.

- رقمك هو 101

حاولـت الاسـترخاء في جلسـتي، الرقـم يثـير حيـاة كاملـة تذكـرت أرقـام جلـوسي في قاعـات الامتحـان في سـنواتي القديمـة كانـت

رقمًا وحيدًا 101، ظل هكذا طوال دراستي الابتدائية.

مرّ الرقم بمراحل عاطفية معي، في البداية أحببت 101 رقمي المختلف الذي يحمل في داخله تجويفًا ما، فراغًا بين وجودين، نقطة صغيرة بين شامخين، ثم أصبحت أكرهه بشدة، وقبل دخولي أي امتحان كنت أعرف أن رقمي هو 101 وفجأة أصابتني اللامبالاة أجلس على المقعد وأكتب في ورقة الإجابة 101 حتى نهاية الصفحة.. لذا ظللت في السنة الخامسة عامين.

عندما وصلت إلى المرحلة الإعدادية أخفيت وجهي بين يدي وانتظرت كان الرقم نفسه مصلوبًا أمام عيني، في الثانوية عندما دخلت إلى قاعة الامتحان قفز إليَّ الرقم الجديد 146 لم أتخيل هذا التغيير والنشاط الذى دب في أوصالي، فاعتدلت ورتبت أقلامي وتنفست.

**

حدثت جلبة شديدة في قاعة الانتظار فانتبهت من سيل الأرقام والذكريات وجاءني الصوت الحاد الذى لا يملك أي تعاطف:

- رقم 101

نهضت واقتربت من المكتب البيضاوي وأشارت الموظفة:

- الدكتور ينتظرك في الدور الثاني.

في حجرة الطبيب الذي كان أكثر ودًّا مما توقعت، رأيته يضع يديه في جيب معطفه، وكلما حاول أن يخرجهما كان يعاني من شيء ما، فيتركهما، التزم هو مكانه في أول الحجرة وقال:

- تقدم، لما تبدو منزعجا؟

كأنه كان يعرفني من قبل، تحدث كثيرًا دون أن أتنبه تمامًا، وهمس:

- السرطان ليس نهاية العالم.

قالها ولوح بيديه في الهواء بعد أن انتزعهما من معطفه، ولمحت ملاكًا يفر من جيب المعطف، كانت نبرة صوت الطبيب مطمئنة لكنها اهتزت بعض الشيء عندما قال هذه الجملة.

**

كتمت جدتي صرختها بكفها المرتعشة واحتضنت رأسي الموجوع في صدرها.

في مديح الموت

موت الشباب يصعب على الزرزور

بيّت على ورق السجر مغمور

موت الشباب يصعب على القمري

بيت على ورق السجر يمري

ربما كان الناس في الطرقات يتهامسون عني الآن، يقولون: حالته تسوء، ويقولون: لم نعد نزوره، نسأل ونحن نمر في الدرب: كيف هو؟ فيجيب الجالسون: ربنا يتولاه برحمته.

لا أعرف كيف يصلني الكلام، ربما في لحظات الإفاقة، وربما أتخيله، لكن ما الذي يقصدون بـ»رحمته»؟، أيقصدون الشفاء أم الموت، أم الشفاء بالموت، هل ينتظرون موتي، هل تعبوا فقالوا: وقوع البلاء خير من انتظاره، هل أنا بلاء؟

**

بقصد أو بدون قصد أصبح البيت كئيبًا، وأصبح الأطفال حزانى صامتين، عندما يعبرون بأقدامهم الصغيرة العتبة الحجرية إلى داخل البيت يصمتون كأن على رؤوسهم كلَّ العصافير التي يحبونها ويخشون طيرانها، يجلسون في أي مكان، يهمسون عندما يطلبون طعامهم، ربما خشيت أمهاتهم عليهم من هذا الصمت فتمنين موتي.

جاري الذي كان ينتظر مجيء ابنه من البلاد البعيدة كي يزوجه أجّل الفرح في انتظار شيء ما، ربما في انتظار جملة «الحي أبقى من الميت»، والابن الذي جاء في إجازة قصيرة من غربته ليتزوج ويعود، بدأ العد عليه منذ ركب السفينة،

ثلاثة أشهر لا غير، يريد أن يتزوج وربما يريد أن يترك جزءًا منه في رحم زوجته، لأنه لا يعلم متى يعود ثانية، جلس الجار مع جدتي بعض الوقت ثم خرج غاضبًا يصيح: «ثلاثة أشهر يا ناس مرَّ منهم شهر»، ردت عليه جدتي: «افعل ما تشاء، يوم موتك سوف أصنع فرحًا من سبع ليالٍ»، صرخ: «يا عمَّه يكون فرحنا في صمت»، فلم ترد عليه، عندما عادوا بي آخر مرة من عند الطبيب رأيت الابن في الشرفة يرجوني.

**

عمي الصغير «شوقي» الذي يكبرني بسنوات قليلة، يفكر في أن الغرفة التي أنام فيها في مرضي تصلح أن تكون غرفة عرس له بدلًا من أن يبني غرفة جديدة فوق سطح البيت، كلما زارني وزع بصره في أرجاء الغرفة الواسعة يحسب تكلفة إعادة ترميمها، سوف تحتاج إلى إعادة طلائها، والأبواب سوف تحتاج إلى تغيير شامل، سوف يأتي بأبواب حديثة بدلفتين، ويحتاج المكان إلى بلاط حديث، لكن عندما فكّر في أنه لن يسمح لشجرة الفيكس باختراق الشباك؛ لأنها تمنع إغلاقه، تندى جبيني بالعرق وشعرت باشتعال وحش المرض في داخلي، أتخيل أن يحرق سريري خوف المرض وأن يحطم الباب والنافذتين وأن يخفي صورة والدي في مكان بعيد ثم ينسى المكان، لكن أن يكسر شجرة الفيكس التي تحمل روحي فلا، وكلما التقت أعيننا أشعر برغبته في موتي مصلوبة في حدقتيه، أراني ميتًا داخل العينين، ممددًا في السرير برداء أبيض، أحرك يدي أمام عينيه لكنها تظل في العينين بلا حركة، يبدو وجهي في عينه شاحبًا وعليه علامات ألم وتقلصات فأتساءل بخوف: «هل سيخنقني؟»

جدتي أصبحت أكثر حدة وأكثر غضبًا، طوال الوقت تسبّ الجميع، وتلعن كل المارين من أمامها، أذكر أنها لم تكن بهذا الغضب من قبل، كان من بين غضبها ينبت ضلع حنانها، هل أنا من أشعل الفتيل تمامًا؟ وجعلها مشتعلة طوال الوقت لا فرق عندها بين كبير وصغير.

عندما أغمض عيني أفكر: جدتي فقدت، من قبل، زوجًا وابنًا وابنة، هل تريد أن تفقد حفيدًا، كي تكتمل أسطورتها، وتمتلك رباعية الفقد الشهيرة، هل تتخيلني ميتًا وتمنحني رسائل أحملها للآخرين، هل تختلط لديها رغبتها في بقائي ورغبتها في موتي، هل تريد أن تجلس على رأس المأتم وتنوح: كنت أولى بالموت منه، فيردون عليها: يا أمنا تَقْبُرينا جميعًا.

وأنا هل أتمنى الموت، هل أشتهيه وأنتظر مجيئه كي أعيد ترتيب كل شيء؟

أعرف أن الموت وحده يفتح الشرايين المسدودة، وينقي الدم الذي فسد، ويمنحني القدرة على الطيران فوق أكتاف الرجال، ويجعلني بعيدًا لا تحيط بي نظرة عطف من امرأة كانت تكره أمي، ويمنح عقلي فرصة للتفكير في شيء آخر غير المرض، ربما أفكر في مشاجرة مع رجل غريب في الشارع يركلني لأن قبضتي كانت قد استقرت على وجهه، ولأول مرة سأملك قرار نفسي، وترتاح أذناي من عصافير الصباح المزعجة ومن بكاء أطفال عمي الذين يريدون حبات البرتقال القليلة التي بجانب سريري، ويعطي فرصة لعمتي «عطا» التي تسكن غرب القرية، أن تنهنه بالبكاء أمام جدتي فتسامحها وتمنحها ربع قيراط على الطريق تجعل منه مأوى لحيواناتها، ويجعلني أنهي عذابات شجرة الفيكس، لأن عمي لن يصبر طويلًا، فهي مثلي تعلم

أنها ستموت وتنتظر هذا الموت وتخشى أن تفاجئها الفأس على حين غفلة.

ربما يمنح موتي أقاربي فرصة أن يجلسوا مع أعمامي في مأتمي يشربون الشاي ويتبادلون السجائر ويتحدثون عن إعادة تقسيم الأرض، سيقول أقاربي: «الحياة فانية والموت لا مهرب منه ولكم في ابن أخيكم موعظة»، حينها سيبصق عمي الصغير «شوقي» سيجارته ويسأل عن واحد منهم غاب ولم يأتِ، فلا يصرحون بأنه قال: «قلوبكم من حجارة لن يؤثر فيكم موت أو حياة»، إنما يدَّعون أنه عجز عن المجيء لأنه طريح في فراشه يهذي، فيرد عمي في خبث: «هكذا كان ابن أخي قبل موته».

نعم أريد الموت، فما الموت إلا نعاس يطول بعض الشيء حتى ينسى النائم أن يقوم، وأنا أحتاج كثيرًا إلى النوم، وإلى الأحلام البسيطة التي أراني فيها عاديًا، إلى حلم لا أجد صعوبة في تذكره وليس كوابيس تخطف قلبي معها وتتركني مطعونًا بخنجر في وجهي.

أفكر في الموت لأنه سيحررني من كلمة «مريض» بحروفها التي تقطر وجعًا، سأكون «ميتًا» بكل الزهو الذي يمنحه الموت كي أفر من العجز.

فيما يرى الهاذي

عيان يا امه تعالي حداي

حلي طروف الشال وهوِّي معاي

كان أبي يقف مبتسمًا على الجانب الآخر من الطريق، ويشير لي كي أعبر، وأنا أحاول، لكن الناس المتزاحمة تحول دون ذلك، وعندما اقتربت واستقرت يدي في كف يده، وتقريبا شعرت بالدفء، جاءت صرخة مدوية:

- لا تذهب، أنت آخر الباقين.

**

تكررت الصرخات التي تعيدني من أحلامي، المكان الوحيد الذي أتمنى أن أظل فيه للأبد، أريد أن أقول لا تصرخوا في وجهي، لكنني لا أقوى، وعندما كانت أمي هي التي معي في الحلم وهمست: "هذا الطعام لك طهوته بيدي، تناول منه"، وصرخت جدتي وأخريات، أغمضت عيني أكثر حتى اعتصرتهما لا أريد أن أعود، لم تكن أمي تأتي إليَّ كثيرًا، في حياتها كنت طفلًا منبوذًا، لم تكن تراني أصلًا، حاولت كثيرًا أن ألفت انتباهها ولم أستطع حتى تسببت في موتها، لذا عندما ظهرت لي في الحلم أردت أن أذهب إليها، وأن أتذوق طعامها الذي أعدته لي، فلماذا يصرخ الآخرون دائمًا ولا يعرفون ما أريده بالضبط، أريد أن آكل من طعام أمي.

**

بينما أدلي قدمي في ماء النهر مرَّت امرأة لا أعرفها وأشارت بيدها:

- إن أمك تبحث عنك..

سألتها وأنا أتفرس في ملامحها:

- أين؟

تجاوزتني وخاضت في قلب الماء وأكملت:

- هناك في هذه الموجة.

ألقيت بصري للأمام أحاول أن أخترق الماء، كان وجه أمي مطبوعًا على الأمواج الكثيرة المتعاقبة، صحت:

- أمي.. أمي.

وهممت باحتضان الموجة، لكن الأمواج تداخلت وظهر وجه رجل مسن ونادى بصوت مجعد:

- تناديني أمك؟

بكيت:

- يا عم أبحث عن وجه أمي وصفه لي الطبيب وأخبرني: وجه أمك شفاؤك.

نصحني الرجل المسن:

- لا تبحث عن وجه أمك في الموج، فالموج لا يترك أثرًا، يا بني ابحث عنه في الجبانة.

**

أنا لا أهذى بل أغمض عيني وأنتظر أن يكلَّ عقلي، ربما تناولت الدواء في غير مواقيته؛ لأن الالتزام بالمواقيت يجعل العقل ذا حنكة في التحايل على الدواء، وعليَّ أن أفاجئه دائمًا، أنا لا ألتزم بمقادير الدواء، لأن عدم الالتزام يذهب بي بعيدًا

عـن الغرفـة المغلقـة وعـن الوجـوه الحزينـة، الـتي تتصنـع الحزن، وعـن اللغـة الـتي يتحـدث بهـا الآخـرون.

يقولـون: في البيـت لعنـة قديمـة تقصـف أعمارنـا الخـضراء وتيبـس قلوبنـا وتتركنـا كنخـل خاوٍ.

يقولون: ظلم قديم يسكن في ساس البيت.

يقولون: كان جدنا يأكل مال النبي.

يحكـون عـن امـرأة فقـيرة رفعـت يديهـا للسـماء ودعـت عـلى سلسـالنا: تقصـف أعمارهـم وتجـف قلوبهـم وتعشـش في أرواحهـم العناكـب.

**

بعـد أن أخـبر الطبيـب عمـى "خضـير"، أمامـي، وبصـوت فرقـع مثـل طبلـة حـرب، وصنـع في ذهـني تهويمـات وتخيـلات للجلاديـن ولمنفـذي حكـم الإعـدام:

- لا تأتوا به مرة أخرى لن تناله سوى "البهدلة".

دمعـت عينـا عمـي، ثـم عـلا صـوت نحيبـه، وكنـت أعرفـه لا يبـكي أبـدًا، ظـن أنـني في غيبوبـة لا أعـي، وعندمـا عدنـا للبيـت وكنـت محمـولًا بـين رجلـين، وقبـل أن تسـأله جـدتي ألقـى جملتـه المثقلـة بالكـذب:

- فاضل تمام لا يحتاج شيئًا الآن.

تأملتني جدتي ومسحت بكفها على وجهي:

- أشفي؟

لم ينظر إليها لكنه أجابها:

- نعم.

أوقفته بنظرتها اللائمة، وكان يهم بالخروج من الغرفة:

- يا ابن الهَّم، ابن أخيك مثل خرقة قديمة لا يقوى على التنفس، كيف تقول "تمام"؟

جاء صوته من على السلم البعيد، بعدما نجح في الفرار من أسئلتها:

- مسألة وقت، كما قال الطبيب.

**

انفتح الباب ودخلت الطفلة التي ترسل ضفيرتها الوحيدة على ظهرها، وفتحت يدي ومنحتني تينة خضراء، فحكيت لها: "حواء منحوها من قبل تينة أفسدت كل شيء"، لم تفهمني وأضافت: عندما تأكل منها سوف تصير مثل أخي"، علقتُ: "أخوك بغل صغير، هل سأصير مثله؟ ضحكنا، كنا نختبئ أسفل سرير أبي، أمسكت يدي ونظرت في عيني: "ستكبر وتصير رجلًا وتتزوجني"، غضبت فجأة: "لا أريد أن أتزوجك، أريد أن ينبت لي جناحان فأصعد إلى السماء وألقي على بيتكم الحجارة، فأمسكت بي من منبت شعري وصاحت: "أعد لي تينتي"، فبكيتُ: "لا تينة معي"، كانت يدي فارغة وأنا وحدي ورأسي يصطدم بحديد السرير من الألم.

**

أنا لا أهذي، الهذيان هذا ما يصف به الآخرون أحلامي، وأحلامي حياتي الحقيقية المتبقية التي أهرب إليها، يقولون: كلامك غير واضح ومتداخل، وأقول: هي منطقي الآن، في لحظات الإفاقة أحس بحرارة الجو في الغرفة المغلقة، وبشجرة

الفيكس المُتربة التي تخنق ما تبقى في الحجرة وترمي بظلها على المكان، وأشعر بذلك الوحش الذي يتمدد في داخلي يأكلني، لذا أهرب منه، ولما يحاصرني في طرف الغرفة أسقط في دائرة من الرؤى وأشاهد الذي أريد، وأفهم المغلق عليَّ، هذياني في الحقيقة انفتاح على حياتي السابقة.

**

كان حضور جدتي في الأحلام محتفظًا بصورتها الواقعية؛ حزينة وغاضبة، المختلف فقط أنها كانت تسبني أحيانًا وتسب أبي طوال الوقت، تأتي آمرة ناهية، ترتدي لونًا أخضر وفي يدها مسبحتها الطويلة التي لا تفارقها، وأنا أجلس أمامها على حجر يصلح أن يكون كرسيًّا، فتشد يدي: "لو تسلقنا شجرة الصفصاف يا فاضل ربما نطير في الهواء"، يبدو عليَّ الارتباك: "سوف نسقط يا جدتي"، تنظر في عيني: "يسقط غير الرجال أمثالك"، أجعل صوتي خافتًا: "يا جدتي أنا مريض"، فتضع يدها على رأسي وتقرأ الذي لا أفهمه، حتى أستيقظ.

وربما تكون في مرة أخرى غاضبة مني، ترفض الحديث معي ويضيع الحلم كله في محاولتي أن ألفت انتباهها، لكنها تكسر بعض الأشياء التي في يدها وتصمت.

كان في أثري

طلت البرودة والسبع ما طل

يا بوز البارودة مر الندى متبل

قبل موتي بأسبوع كان يومًا مشهودًا، يتذكره الآخرون كأنه القيامة المفاجئة، أطلق عمي "خضير" رصاصة على سلمان سليط فقتله، بعد أن تشاجرا على استقامة الفارق بين الأرضين، وصرخ سلمان سليط:

- يجرى الظلم فيكم مجرى الدم، تريد أن تسرقني.

فكتم عمي صوته:

- يا ابن الغريب منذ متى ترفعون أصواتكم.

وانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، صرخ نساء أعمامي وخبأن الصبية داخل الدار ووضعن المتاريس خلف البوابات الخشبية، ودسسن عمي القاتل الذي جاء مذعورًا في غرفة الخزين.

وجاء الليل بعد أن قضى سلمان سليط نهاره كله منكفئًا على وجهه في مكان قتله، يقولون: ظل يتلوى وعمي شاخص في مكانه غير مصدق ما فعله، وقد سقطت بندقيته التي أتى بها من تحت شجرة الصفصاف على الأرض، ثم هدأ كل شيء وأفاق عمي على من يصرخ فيه:

- اهرب يا ابن الكلب.

فأطلق ساقيه كأنما كلاب مسعورة في أثره، عندما دخل البيت بصقت جدتي على وجهه، الفزع دفعني للخروج فوقفت مستندًا على الباب، حتى رأتني جدتي فأعادتني للسرير

ووضعت ضمادة قماش تنز ماء على رأسي المشتعل.

في الليل يتضاعف الحزن والخوف والقلق، وتسري العناكب في النفوس الخربة التي تستعد لتمتص دم الآخرين، بعد أن نقلوا جثة سلمان إلى المشرحة، وانتقلت نصف القرية خلفه، واجتمع في بيتنا كبار العائلة يدبرون هروب عمي عند أخواله على بعد ثلاث قرى، وشمت الشامتون الذين مروا على بيت سليط قبل مجيئهم وتبرأوا منا:

- عليكم أن تدركوا أين حقكم، نحن لا علاقة لنا بهم، ابنهم التالف الذي فعلها وهو ملك يدكم.

تمنت جدتي لو قالوا: لا نعينهم عليكم ولا نعينكم عليهم.

لكنهم قالوا: لو ملكناه نسلمه لكم، لو قطعتموه في الطريق ما مددنا يدًا لنجدته، أنتم أبناء أعمامنا، وأضاف واحد: والله أنتم أقرب إلينا منهم.

اجتمعوا في المساء وحسموا الأمر: يهرب الليلة والناس مشغولون في انتظار المقتول.

**

في لحظات الهروب تكون وخزات الحلفا على الطرق الخلفية المهجورة أكثر مرارة، فهي تنغرس في الأقدام رغم الأحذية التي تحفظها، تخترقها كسيوف صغيرة تتسلل بين الأصابع تلسع ثم تنسحب مصحوبة بنشوة الدم.

في انتظار المقتول الذي انكفأ نهاره كله على وجهه، أقسم شقيقه سعد سليط، بألا يرقد جسد أخيه الليلة في القبر وحده، وصرخت امرأة على رأس الدرب:

- سعد سليط يفرش الطريق إلى الجبانة بالدم.

لم ينتظر أعمامي أن يبرَّ سعد سليط بقسمه، أسرعوا بعمي إلى طريق الحلفا البعيدة التي لا يقصدها الناس في مسائهم، بعد أن ارتدى ملابس امرأة غريبة وسار بين امرأتين تخفيان وجهيهما، وتحملان على رأسيهما ما يكفي لجعلهن مستعجلات للوصول لقرية أخرى قبل أن يسلب الليل منهن الطمأنينة، مررن في طريقهن بالجبانة التي يسكنها موتى عشر قرى يأتون إليها من الطرق الوعرة والبعيدة لا علاقات تجمعهم سوى الموت، ولمح عمي بطرف عينه القبر الذي يحفرونه الآن لسلمان سليط، لم يلتفت الرجال الذين يعدون القبر لثلاث نسوة على طريق الحلفا يركضن تقريبا. عندما رأت جدتي عمي يرتدى ملابس النساء لطمته:

- الموت يا ابن الحزن أفضل لك، لن تقدر أن تخلع هذه الثياب ثانية.

فبكت زوجته "العايقة" وسال كحلها مختلطًا بالدمع على نهري خدها حتى الرقبة المشرعة، ولثمت يد الجدة كي تصمت.

**

بعد خروج عمي من البيت عادت المتاريس لتأخذ مكانها خلف البوابة الكبيرة ووراء الشبابيك المطلة على الشارع، واصطدمت الرصاصات التى أطلقها سعد سليط في قلب الحائط الشرقي للبيت واستقرت إحداها في قلب شجرة الفيكس، وأخرى في جدار البيت المقابل ممتلئة بالغضب والحقد ودخان القلوب المحترقة.

في الليالي التي تشتعل فيها الكراهية يغيب القمر عن عمد

ليمنح مساحة للرغبات الدفينة كي تنهض من قبورها التى بليت، ولتصحو الأرواح القديمة المنسية التي كانت ترسبت في نفوس أولئك الذين يسندون ظهورهم الآن لحيطان بيوت سليط، يتذكر كل واحد منهم مَظلَمة له وحكاية ممتلئة بالدم مع جدودي وأعمامي، ويحمدون الله أن مصيبتنا جاءت مع بيت سليط، حتى يهلك الله الظالمين بالظالمين، فليست المرة الأولى التى نأكل فيها أجساد بعضنا، بيننا تاريخ دموي يمتد امتداد الزمن نفسه. في المرة التي تسبق ما فعله عمي، اختطف بيت سليط عمي "راضي" ودفنوه حيًّا في الجزيرة ردًا على ما فعله جدي في أخيهم الأكبر الذي بكى كفتاة عندما رأى جدي يضع سكينه التي سيذبحه بها في النار، بعدها اتفقت العائلتان - بعد أن راجعوا أعداد القتلى فوجدوا أنهم متماثلون- على التوقف عما أطلقوا عليه الغدر، ثم جاءت فعلة عمي الأخيرة لتوقظ كل ذلك، الآن لهم واحد علينا، كما تذكروا بشاعة القتلة التي فعلها جدي في أخيهم الأكبر، سالت الدماء دافئة من الشقوق التى تسكن أرواحهم وخضبت أكفهم، وعندما واروا سلمان سليط في التراب أبصر أخوته دائرة الدم التى تتسع في موضع القلب، وقبل أن ينتهوا من الدفن كان الكفن الأبيض كله مصبوغًا بالدم.

**

مرَّ ملاك الموت أمام نافذتي المفتوحة وهو في طريقه ليسلب روح سلمان سليط، رأيته كان على هيئة غراب له جناحان أسودان كبيران ونظرة متحدية، وقف على إفريز النافذة وتأملني، ربما تذكرني وهو يقبض روح "سلمان" عندما وجده قويًّا وروحه ناشبة أسنانها في عروق جسده ومزروعة وموزعة في

كل خلاياه، كان سلمان معافرًا يتلوى حتى أجهد ملك الموت الذي ربما تذكرني حينها فناجى ربه: "سبحانك يا رب مررت في طريقي على ضعيف، روحه على شفا أنفه لو بسطت لها يدي لسالت مثل بئر فاض ماؤها، لا طوق يحميها من التسرب، فإذا بي أجثم على ثور لا أول له ولا آخر".

بعد أسبوع من موت سلمان سليط وقف ملك الموت في هيئة عصفور له جناحان ملونان على النافذة المفتوحة، شعرت به، كانت هيبته واضحةً، ربما من ثباته في وقفته، وربما لكونه حزينًا مهمومًا في عينيه دموع، شعرت به شيخًا حكيمًا في نفسه كلام كثير لم تتح له ظروف مجيئه أن يتبادله مع الأحياء الموتى، لم يكن اعتذارًا، كان رغبة في حكي، ربما رهبة رغم عمله المكرر الذى نسي كم مرة قام به بطرق وأشكال مختلفة، عندما رأيته تنبهت وكنت قبلها لا أعي شيئًا، صوت جدتي يروح ويجيء، وأمي تحضر كي تهمس في أذني بحكاية "أحمد الغول" ولا تكملها، المكان يمتلئ ويخلو والناس يفيضون وينكمشون، عندما حط العصفور الملون على النافذة نقر شجرة الفيكس فبكت، وقف على طرف السرير وحكى وهو يتقدم ناحيتي:

- ساعدني بي رجفة المبتدئين.

شعرت بخوف مطمئن، ورأيت حياة جميلة كريهة كنت لا أريدها، تتسرب، الآن، أمام عيني كوميض شاشة، كان وجه فتاة رأيتها في قطار ذات مرة يمر من أمامي، عندما تهيأ العصفور وبسط جناحيه الملونين وغطى وجهي، رأيت جدتي تعدل ظهرها المكسور وتقبل رأسي لم أشعر بحرارة شفتيها كأنما كانت تقبل شخصًا آخر.

العمر الثاني

الضوء مهلكة

في حضرة الظلمة

يا قلب أمي.. يا قلب أمي

يا قلب أطواري المختلفة

لا تقف ضدي شاهدًا[٣]

حاولت فتح عينيّ قليلًا فلم أستطع، كأن هناك ما يطبق على الجفنين ويضغط عليهما بشدة، أردت أن أمد يدي لأزيح ما ظننته عصابة تربطهما، لكنني أحسست بيديَّ مقيدتين إلى جسدي، ولما حاولت أن أنطق لم أستطع، كان فمي مكممًا، وعندما أرهفت أذنيّ كان الصمت، صمت غريب لم أعرفه من قبل، بلا طنين أو خربشة، هو ركود لكل شيء، كأنما الأشياء استقرت بعد وصول أو بعد جهد وصخب وراحت في نوم عميق، لكن النوم لا يكون بهذه الطريقة المخيفة المزعجة بسكونها، ليس صمتًا إذًا إنه سكون، وبدأت أختنق بالبكاء.

لم يكن معي سوى ذهني أحركه في هذا الضيق أو يحركني، شعرت بالظلام المحيط دون أن أكون قادرًا على فتح عينيّ لأتحقق الذي أحس به، تخيلت الظلام شبحًا قويًّا برداء أسود جاثمًا فوق كل شيء حولي، كأنما نبتت في عقلي عينان أحركهما وسط هذه الحلكة مثل قرون استشعار لكنها لم تدلني على شيء يبث في روحي الطمأنينة.

شعرت في قلبي بدبيب الخوف، فارتحت لذلك الإحساس الجديد حتى ولو لم يكن جيدًا، لكنني اطمأننت إلى أن قلبي معي، وأنه غير مقيد هو الآخر بشيء، وقد كانت دقاته الخافتة المتلكئة بالنسبة إليّ إعلان حرب على هذا الصمت.

٣- مفتتحات العمر الثاني من كتاب الموتى.

على هذا الموت.

عندما ترددت كلمة الموت في ذهني توالت عليّ الذكريات التي تومض وتختفي مثل بقع ضوء مختلفة الألوان، تذكرت بكاء متقطعًا يذهب ويجيء، ووجعًا كان يأكلني لا أحس به الآن، وجدتي تحرك مسبحتها وتلعن حياة فاجرة سلبت منها كل شيء.

حاولت أن أحرك يديَّ لم تكونا مقيدتين، فقط كانتا موجودتين تحتي لكنني غير قادر على زحزحة جسدي من مكانه، شعرت بالاختناق وأردت أن أعرف ما الذى أنا فيه الآن، آخر الذي رأيته العصفور بجناحيه الملونين يعتصر عينيه الصغيرتين حزنًا، الظلام الغريب الذي وقعت فيه الآن ينعكس على رؤيتي ويفعل تهويمات في ذهني ويغطي كل المساحات التي من الممكن أن تصل إليها الأفكار.

تمنيت أن يخدش هذا الصمت أي شيء، أن يتحرك هذا الهواء الراكد الثقيل الذي بدأت أجذبه لرئتي بمجاهدة عظيمة.

- هل أنا في قبر؟ أأنا ميت؟ أم تراني ما زلت حيًا وأنني كنت في غيبوبة والآن أستفيق منها، هل أدركوا كوني في غيبوبة أم أنهم لم ينتبهوا ودفنوني وذهبوا، وأنا الآن في القبر أحاول التنفس ولا أستطيع إلا بصعوبة؟

شعرت فجأة بألم حاد في ساقي اليمنى، وحاولت أن أحركها لم أستطع كان ركام من الحجارة فوقها، ملقى أنا في مكان ضيق غير قادر على الرؤية لا أعرف إن كنت ملقى على ظهري أم على وجهي فلا مسافة بيني وبين الأشياء.

الحالة التي أصبحت عليها أجهدت عقلي جدًا، فانقسمت

على نفسي أصبحت "أنا" الميت في مواجهة "أنا" العائد من الغيبوبة.. أقول وأرد عليَّ.

قال الميت الذي لا يشعر بساقه اليسرى (في نفسه):

- أنا الآن في انتظار الخوف.

ورد عليه العائد من الغيبوبة (في نفسه أيضًا)، بينما توخزه حصاة قاسية في جنبه:

- سيكتشفون وجودي ويعودون ليخرجوني من القبر.

فحرك الميت قشرة مخه مستهزئًا به:

- الميت لا يعود، عندما ضاع دفء قبلة جدتي على جبهتي ضعت معه، والظلام والعجز اللذان يحيطان بي الآن يؤكدان موتي، الخوف الذي يدل على حياتي لا يعني العودة، بل يعني بداية مرحلة جديدة من الألم.

العائد من الغيبوبة كان يبكي عندما تخيل أن لا أحدًا من الذين ظنهم أهله سوف يفكر في العودة مرة أخرى للمقابر، يعرف الظرف الذي مات فيه والخوف الذي كان مسيطرًا عليهم، لو نسي الواحد فيهم نفسه في المقابر لن يعود، حتى لو عاد أي منهم كيف سيعرف أن الذي في باطن الأرض حي ليس بميت، تمنى أن يكون قادرًا على الصراخ لكن فمه لا يزال مكممًا بلا شيء.

وتساءل الميت: "ما الذي يحزنك؟ ألم يكن الموت غاية سعيت لها وتمنيت حدوثها؟ والذي تخشاه الآن لن يكون أبدًا بقسوة الذي حدث، تخشى الجهل بما يحيط بك، وما فائدة المعرفة؟ كنت من قبل تدري بكل شيء حولك فهل انتفعت بشيء؟

بـدأت أشـعر بنـوع مـن الاستسـلام الـذي يصاحبـه توتـر لـم أسـتطع تجـاوزه بعـد هـذا الحـوار الـذي دار في نفـسي وظـل العائـد مـن الغيبوبـة منزعجًـا بعـض الـشيء.

**

امتـد السـكون الـذي أصبحـتُ جـزءًا منـه لا أعـرف كيـف أنعـزل عنـه فتشـابكنا معًـا، وتشـابه الزمـن المتوقـف أصـلًا عـن الحركـة كأنـه يعيـش في ثانيـة واحـدة مكـررة لا يحـدث فيهـا شيء، وظـل الذهـن المشـدود قابضًـا عـلى أفـكار سـوداء.

ثـم اهـتزت الأرض أو انفجـرت وسـمعت صـوت الحـصى المتحـرك مـن مكانـه، شـعرت بالرعـب لهـذه الحركـة المفاجئـة، قبـل أن أنصـت إلى همهمـة غريبـة متآكلـة الحـواف ومحشرجـة النـبرات تقـترب، وفجـأة أمسـكت الهمهمـة المحشرجـة بسـاقيَّ وجذبتـني بشـدة.

**

ظننـت أن كلَّ الـذي مـر حـتى هـذه اللحظـة الـتي أخـشى اكتشـافها، كان بالنسـبة لي كابوسًـا قاسـيًا، واعتقـدت أنـه انتهـى، لأن صـدى الصمـت وحـده يـتردد داخـل رأسي، ومـع هـذا أقـاوم رغبـتي الملحـة في أن أفتـح عينـيَّ وأحـدق في الفـراغ، وفي أن أصرخ، كنـت خائفًـا مـن شيء لا أدركـه، صـوت داخـلي يهدئـني: "اسـترخ فقـط، اسـتيقظ في داخلـك، لا تحـرك جسـدك، لا تهتـم بالثقـل الـذى يحـطُّ عـلى صـدرك"، فأطعـت الصـوت الـذي كان يحمـل رنـة صارمـة لا تفيـد معهـا مجادلـة أو معانـدة، قلـت: "ربمـا يعرفُ أكـثر"، وقلـت: "صوتـه آمـر وجسـدي يطيعـه"، وقلـت: "هـو ابـن الصمـت الـذى أسـمعه"، فجـأة، وفى غفلـة مـن الصـوت فتحـت عينـيَّ عـلى اتسـاعهما... و... وصرخـت.

قبل الدخول في الغياب

انظر ها أنا في حضرتك يا سيد الغرب

ليس في جسدي أي إثم

صرخت، صرخت، وفتحت عيني على اتساعهما، وجدتني في ساحة كبيرة لا أعرف حدودها ولم يقع ناظري على آخر لها، لا أحد يمسك قدميَّ، ومع هذا ما زلت أشعر بدفء كاحلي، عندما استرددت نفسي نوعًا ما، وبعد أن مرت لحظة الضباب، أبصرت رجالًا يرتدون زيًّا موحدًا ويجلسون في دوائر صغيرة تشبه حلقات الذكر، هيئ لي أنهم يحركون رؤوسهم بانتظام رتيب.

عندما توقفت عن الصراخ كان الرجال ينظرون إليَّ بطريقة بدت وكأنهم مروا بهذه التجربة من قبل، لم يظهر عليهم الانزعاج ولا الخوف، كنت ملقى على الأرض أرفع رأسي قليلًا كي أرى، عادوا إلى حلقاتهم، وأسقطت رأسي إعياء، أصبحتُ في مواجهة السقف الذي لم أجده، كان عبارة عن مسافة كثيفة من الضباب، حاولت أن أخترقها لم أستطع.

اعتدلت في جلستي وتنبهت أكثر إلى زيِّهم المتشابه الأبيض الذي لا يختلف سوى في درجة الوضاءة ونقاء اللون، وعاد بعضهم لاختلاس النظر إليَّ، كانت ملامحهم هادئة أكثر مما تمنيت، بما لا يفسر الفزع الذي أحس به، إذن فهذا الفزع له مصدر آخر ليس هؤلاء الجالسين في حلقات.

**

نهضوا جميعًا في وقت واحد، لا أستطيع أن أحصي عددهم ولا أن أعرف من أين يأتون، كانوا ينبتون من الفراغ، يقتربون مني

في دائرة تضيق، توقعت أن أستيقظ الآن، لو كان هذا كابوسًا فالآن هو الوقت الطبيعي للاستيقاظ مفزوعًا كي أتحسس رقبتي ووجهي لكنني لم أستيقظ، وهم يقتربون بوجوههم الهادئة.

عندما أحاطوا بي ولم أستيقظ أيقنت أن الذي أنا فيه واقع لا أستطيع تغييره لا بإغماض عيني ولا بالبكاء ولا حتى بضرب رأسي بالأرض أو حتى بسبهم وإثارة غضبهم، لم يكونوا متطابقين إلا في زيهم الواحد وهدوء ملامحهم، ربما كنت سأغفر لهم لو بدا على واحد منهم الاندهاش فقط، فقليل من القلق على هذه الملامح هو ما كنت أحتاج إليه، كنت على استعداد أن أتوسل إليهم كي يبدو عليهم بعض الخوف أو الاستغراب أو حتى الكراهية، أي شيء سوى تلك البلاهة.

كنت مشدودًا إلى الأرض لم أستطع فرارًا، في الحقيقة ولا حتى حاولت، لم أجد بداخلي قدرة على فعل شيء رغم الموقف الذي أنا فيه، حاولت أن أجلس القرفصاء كما يليق برجل خائف لا أن أظل ممددًا كأنني غير قلق، أردت أن أقول لهم: "أنا خائف جدًا منكم"، لكن جسدي لم يطعني في التعبير عن الذي أردت أن أفعله، اقتربوا أكثر، حينها أيقنت أنني هالك، مع أن كلمة "هالك" كانت أقل من الذي شعرت به، لأنني لم أفهم معناها تمامًا، في وقتها كانت تشبه نوعًا من الضياع أو الذوبان في الخوف.

توقفت الدائرة، بعدما ضاقت وتهيأت كي أتوسل إليهم حتى لا يفعلوا بي شيئًا، بداية كان علي أن أحدد هذا الشيء الذي أتوقع أن يفعلوه، ربما سيقتلونني أو يأكلونني، يأخذ كل منهم نصيب من جسدي وأرى لحمي بين أشداقهم، ما الذي كنت

سأقوله لهم كي يتوقفوا عن فعل ذلك، كنت سأصرخ، بداية ربما يفزعهم صراخي، سأقول:

- لا تقتلوني.

وهل للقتل معنى الآن؟ وهل حتى للآن معنى أيضًا؟ ربما كنت سأبكي بطريقة متشنجة حزينة اعتمادًا على وجود قلوب رقيقة خلف هذه الوجوه الهادئة، لكنني لم أتوسل لأنني لم أكن في حاجة لذلك، توقفت الدائرة وأفسحت طريقًا في قلبها ممتدة إلى اللاشيء، كنت قد اعتدلت بجذعي بعض الشيء، وكانت الطريق الممتدة بين الأجساد في مواجهتي تمامًا.

ومن نهاية الطريق التى ظهرت من بين أجسادهم - هذا إن كان لها نهاية - تقدم واحد منهم، هو بالنسبة إليَّ ظهر من العدم، فجأة كان يسير ناحيتي، ويرتدي اللون الأبيض، وعلى وجهه - عندما اقترب - أثر هيبة ووقار، سار حتى تجاوز الدائرة، اقترب أكثر حتى زاغت عيناي وبدا صوته خافتًا:

- لا يصح أن تظل عاريًا هكذا.

قال هذه الجملة وقدم إليَّ رداء أبيض، عندما نشرته بين يدي أدركت شيئين، الأول أنني كنت عاريًا طوال الوقت الذي مر، والثاني، أنهم جميعًا يرتدون أكفانًا.. كنت مذهولًا حتى أفقت على كلماته الهادئة:

- تريد أن أساعدك في ارتدائه؟

لم أسمع الكلمات جيدًا، كأنها تجاويف صدى صوت يتردد في مكان لا علاقة لي بما يحدث فيه، ما الذي يريد أن يساعدني في ارتدائه.. (الكفن)؟

- لا

قلتها وانزويت جانبًا بعد أن اختفى الرجل في العدم الذي جاء منه، وانفضت الدائرة، وعاد الباقون إلى حلقاتهم الصغيرة، شعرت بمرارة الدمع على شفتي، وربما سمعت نهنهة صغيرة بائسة شقت طريقها من حلقي، نظرت إلى أقرب دائرة إليَّ وإلى أول شخص فيها، كي أعرف كيف أرتدي هذا الذي يستر خجلي.

- اصنع منه إزارًا حول وسطك وضع ما تبقى على كتفيك.

أخبرني بهذا الرجل الذي قصدت أن أقلده، وقد بدا على وجهه فرح لأنني في نيتي توجهت إليه بالسؤال.

وكأنني ارتديته من قبل آلاف المرات، في ثوانٍ معدودة صنعت الإزار حول وسطي بدون مساعدة، كان خجلي لا يزال يتصاعد مني وأنا أدير عينيّ في المكان، ماذا بعد؟، وظهر الندم لأول مرة عندما فكرت: كيف تركت الرجل العارف الذي أعطاني الكفن ولم أسأله أين أنا؟ ومن هو؟ ومن هؤلاء؟

جلست في مكاني، لم ينظر إليَّ أحد بعد أن أصبحت مثلهم ألبس كفنًا، أحكمته حولي حتى لا يسقط فجأة مني - هكذا فكرت-، كانت أفكاري مشوشة بشكل كبير، حتى ذكرياتي التي حاولت أن أهرب إليها أصبحت متداخلة وخيالية ومرهقة كأنها تأتي من مكان سحيق، وكأن بيني وبينها آلاف الأعوام، وكأن قلبي يصنعها الآن بدقاته الخائفة.

**

فجأة، أصبح المكان خاليًا، كنت أجلس ورأسي بين ساقي، أستجدي أي شيء منظم كي يحضر في ذاكرتي عندما أبصرت بقعًا بنية داكنة على ساقي، متسعةً أعلى ركبتي، مددت إصبعي أتحسسها عندما سمعت حركة في المكان تشبه حركة أغصان

الشـجر عندمـا تهزهـا ريـح خفيفـة، فرفعـت رأسي وجدتهـم يتجهـون إلى نهايـة طريـق وأول طريـق آخـر، لـم أكـن أعـرف أكان عـلي أن أذهـب خلفهـم أم أظـل في مـكاني، وقبـل أن يدخلـوا في الغيـاب أشـار واحـد منهـم عـليَّ فتحـرك اثنـان ناحيـتي واحـد عـن يميـني والآخـر عـن يسـاري، وطلبـا مـني في وجـوم المجـيء إلى قاعـة التقاريـر.

اجتماع ربما يفضي إلى شيء

أيا من تنزعون القلوب من الصدور

التحيات لكم يا سادة الأبد

يا خالقي اللانهائية

اجتماع عام

اليوم/ أحد أيام الله

التاريخ/ خمس مراحل قبل الوصول

المكان/ قاعة التقارير

الزمان/ قادرون على معرفة ملامحنا في الضوء

جدول الأعمال:

قراءة المحضر السابق والتصديق عليه

التعريف بالوافدين الجدد ومعرفة دورهم في المكان

مخاطبة المسئولين بالموافقة على زيادة الموارد

تخصيص عضو مسئولٍ عن الضوء

إقامة جدار عازل بين القاعات

تكثيف الأمن على مداخل السراديب

ما يستجد من أعمال

محضر الجلسة:

اجتمع في أحد أيام الله في مقر الاجتماعات بقاعة التقارير كل أهل الخير، برئاسة "السيد" نفسه، ولم يتخلف أحد، بل انضم عدد جديد من خلق الله، ولما كان الاجتماع على

الصواب والحق، فقد تمَّ النظر في جدول الأعمال على النحو التالي: البند الأول:

تمت قراءة المحضر السابق، والتصديق عليه من جميع الحاضرين.

البند الثاني:

عرف "السيد" بالوافدين الجدد وكان عددهم كبيرًا، فأشار إلى البعض سريعًا، مخاطبًا:

- أيها القادمون ما زلتم تسيرون في أقداركم حتى وصلتم إلينا، وذلك عندما حان وقتكم، وها أنتم مستعدون للقيام بأدواركم حتى النهاية، هنا حيث جئتم سيكون مولدكم الجديد، فتلمسوا خطواتكم البكر على أرضكم، لا أحد هنا يعلم أكثر مما تعلمون، فلا تشغلوا أنفسكم بما يجهدكم.

وتريث "السيد" لحظة عند فتى حزين، على وجهه تمددت ملامح خوف وقلق، وعلى جسده علامات بنية داكنة من أثر حريق سابق، ثم أكمل كلامه:

- لك الحق أن تملك قدرًا جديدًا، فمنذ دخلت السراديب بدأت من جديد.

كان الفتى ممتقع اللون تائهًا، أحيانًا ينظر إلى الأرض، وربما يقلب ناظريه في الحاضرين، لم يكن مرتاحًا ولا قادرًا على المواجهة، كأن تسليط الضوء المبهر على وجهه جعله باهتًا، وربما هي المرة الأولى التي يكون فيها في هذا الموقف وسط جمع يتحدثون عنه، فهو في القلب من الحكاية التي كان دائمًا على أطرافها، هو لا يعرف عدد الحاضرين لكنهم كثيرون بما يكفي لتوتره.

البند الثالث:

تمت الموافقة على رفع طلب بالسماح بزيادة الواردات، وذلك للحاجة الملحة التى أصبحنا فيها، وبسبب زيادة العدد وتنوع الطلبات واختلافها، وإعداد خطة سترفق مع الطلب تتعلق بالطرق التي من المقرر اتباعها حال الموافقة والقدر المطلوب زيادته، نشير هنا فقط إلى بعض المصادر القديمة التي يمكن إعادة تشكيل طرق التعامل معها مثل تحصيل الفائت من الحقوق الضائعة عند الأهل والمتسولين وقارئي القرآن واللحادين ومن مصادر أخرى مستجدة.

البند الرابع:

أقر الاجتماع بالحاجة إلى مسئول للضوء، كي يمنحنا الضي الذي نعيش به، ونظرا لظروف خارجة عن الإرادة جرى تغيير القائمين بهذا العمل ثلاث مرات في وقت قياسي، فرغم السهولة الظاهرة في العمل وهي مراقبة الضوء، إلا أنه من الواضح أن هناك شيئًا ما لا يعرفه أحد أو يعرفونه وينكرون، ورغم المميزات والإغراءات التي قدمت للسابقين أصروا على موقفهم، وعليه فمن يريد أن يترشح لهذا العمل سيتقدم في نهاية الاجتماع على أن يعرف دوره جيدًا.

البند الخامس:

تقدم عدد من الحاضرين بطلب إقامة جدار عازل بين القاعات، وذلك لأنهم أحيانًا يسمعون همسًا من القاعات المجاورة، التى يسكنها نساء، وهم يخشون على أنفسهم من الفتنة. يذكر أن هذا الطلب قُدّم أكثر من مرة من قبل ويكاد يكون طلبًا أزليًا، لذا رأى القائمون على الأمر أن يحسم هذا الطلب وينظر فيه بطريقة جدية ونهائية، وكانت الاجتماعات

السابقة ناقشت قدرًا كبيرًا من ميزاته وعيوبه وأثره بوجه عام وسيستفاد من ذلك كله.

وحال عرض الموضوع ظهرت بعض الأصوات المعارضة لهذا الطلب، لأن ذلك سوف يدفعهم إلى الانعزال أكثر، بما يدفع لظهور الكثير من المشكلات التي هم في غنى عنها، وارتفعت الأصوات وتداخلت وكاد الاجتماع أن يفسد لولا حزم "السيد"، الذي عرض الموضوع للتصويت، وبعد إعادته أكثر من مرة للتأكد من النتيجة، أقرَّ "السيد" بأن النتيجة جاءت في صالح بناء الجدار العازل.

البند السادس:

وافق الاجتماع على وضع حراسة على سراديب الوصول، لأنها أصبحت مهددة ومكشوفة تقريبًا وقابلة للسطو عليها، ولأن الموجودين يشعرون بالخوف ويخشون مجيء أشخاص لا يرغبون في وجودهم يسرقون أشياءهم ويكشفون عوراتهم، مع الموافقة على أن تكون الحراسة بالتناوب بين الجميع، واستخدام الطرق المناسبة لتحقيق الأمن اللازم.

البند السابع:

والآن حان وقت الترشح لتولي مسئولية الضوء، لكن لم يترشح أحد، يذكر أن آخر من كان متطوعًا لهذا العمل صلب نفسه في سرداب الوصول، ولم يترك صليبه إلا بعد الموافقة على أن يعمل في مخازن المئونة، لذا كان على "السيد" أن يختار، فكان الفتى صاحب البقع البنية واسمه فاضل هو من وقع عليه الاختيار.

ولم تستجد أي أعمال أخرى، وانتهى الاجتماع في وقته وحينه.

أنا لم أنطق الكذب عامدًا

ولم أكرر الخطأ

هل لي أن أكون مثل المقربين في معيتك

فقط، الشفقة كانت تطل من العيون الحاضرة التي تحيط بي، وتغرس أحزانها في عيني، ثم تجرأت يد ولمست كتفي مشجعة، ووسط ذلك رأيت ابتسامة ساخرة شامتة مجنونة، كانت واضحة جدًا، تشي بأنها ابتسامة رجل ميت، حدث ذلك بعد انتهاء الاجتماع.

**

تسربوا من قاعة التقارير فرادى أو ثنائيات كما دخلوا إليها، وتلكأتُ بعض الشيء متأخرًا، لم أشأ أن أزاحمهم في الخروج ولم أرد أن أكون جزءًا من ثنائياتهم التي لا أعرفها، إنهم مختلفون عني، بل مختلفون عن أنفسهم، أخطأت عندما ظننت أنهم متشابهون كرجل واحد يملك ملامح هادئة وكفنًا مهترئًا.

الخلاف الذي حدث عندما صوتوا على بناء الجدار العازل بين القاعتين كشف عن قلوب مثقلة بالهزائم وأخرى مشتعلة بالاستعداد للهدم والحرق، شعرت بلزوجة تفوح من كلمات التهديد التي تناثرت في زوايا القاعة الواسعة، ورأيت آخرين يلملمونها في جمل شبه مفيدة ويرسلونها سهامًا في قلوب كنت أظنها خاوية إلا من الاستسلام، ورأيت شهوة تلمع في العيون

المتناحرة ولمحت شبح نساء عاريات - تقريبًا - يرقصن على الجدار المتوقع بناؤه.

كان عليَّ أن أستعد لأداء مهمتي التي كُلفت بها، ولا أعرف عنها شيئًا، قمت أتخبط في أفكاري الممتدة المسطحة الباهتة التي بلا نتوءات، فالاجتماع أثار في نفسي أسئلة كثيرة أبسطها وأقلها خطرًا: أين أنا؟

أنا أشعر وأحزن وأفاجأ، فأين الموت الذي شعرت به ساكنًا في قلب الاجتماع يفكر معهم وأحيانًا بدلًا منهم، رأيته ينطق على ألسنة المتحدثين، في تفاصيل حروفهم، في جملهم المنمقة، في لثغات ألسنتهم، وشعرت به خلف ملامحهم الهادئة، كان الموت هو الوحيد الذي يملك ابتسامة في الاجتماع.

**

أصبحت القاعة خالية تمامًا إلا من صدى الكلمات المعلقة في الهواء التي كانت تملأ المكان.

قلبت بصري في القاعة التي أجلس فيها وحيدًا الآن، كراسٍ حجرية لا أعرف لها آخر شبه مرصوصة على صفين متوازيين، وجدران جيرية صفراء كالحة بها بثور صنعتها الحَصِيُّ الصغيرة الملتصقة بها، وثلاثة أبواب ربما اثنان للدخول والخروج والثالث الموصد من الممكن أن يكون الباب الذي يسكن خلفه "السيد".

تركت القاعة وتحركت في السرداب الطويل بعتمته المقبولة، كانت هناك كتابات وصور ورسومات محفورة على جانبي السرداب، كانت منمقة جدًا، لكنني كنت أشعر برهبة وخوف

لذا لم أتوقف، كانت رسومات لطفل يقف مرة ناظرًا إلى أفق بعيد، وفي رسمة أخرى يضحك حتى تبرز أسنانه الصغيرة المتراصة في انسجام حلو، وعلى رسمة ثالثة كان الطفل يرفع عينيه في هلع وبقعة مختلفة اللون تسيل من صدره، وينظر في اتجاه شيخ محطم الكيان مذهولًا، وأخيرًا الرجل المذهول يبكي ويحثو التراب على رأسه.

دخلت الساحة الكبيرة التي كنت فيها بداية، وجدتهم يجلسون جماعات في دوائر، وقفت حائرًا لا أعرف ما الأفضل لي هل أجلس وحيدًا كما كنت، أم أنضم لجماعة ما؟ كانوا في تجمعاتهم مثل جماعات سرية أو مجموعات من المتآمرين، وكل ملامح الهدوء التي رأيتها من قبل ذهبت، تبخرت، فكرت لحظة بأنهم يتآمرون عليَّ و...

- "السيد" يريدك

نبت الصوت بجانب أذني فجأة واختفى فجأة أيضًا.

**

رغم توتري من الاستدعاء، لكنه جاء في وقته لينقذني من أفكاري السلبية تجاه الموجودين في الساحة، سأعود من الطريق نفسها، السرداب، قاعة التقارير، ثم الباب الثالث الموصد الذي ربما كان "السيد" يجلس خلفه على عرش من ذهب وفي يده صولجان ضخم، حاولت طرد هذه الفكرة، لكن السيد لم يكن لائقًا في الكفن الذي كان يرتديه في الاجتماع، هو بالتأكيد يخفي شيئًا ما.

ذهبت مترددًا، لكنني لم أكن أفكر في سبب هذا الاستدعاء، لأنني نوعًا ما كنت أتوقعه، كان الباب مغلقًا وهناك من يقف

أمامه لكنه لم يسألني شيئًا فطرقت ودخلت، وقفت حائرًا في مكاني ثم تنبهت إلى وجود آخرين يجلسون، كانوا ثلاثة رجال غرباء يحملون وجوهًا لم أرها في الساحة ولا في الاجتماع، على ملامحهم ما يشبه الفزع، التوتر، القلق، صمتوا عندما دخلت ولم يكملوا جملهم المبتورة، و"السيد" يفكر في هَمٍّ، عندما رآني رفع يده ليصرفني، لكنه أشار لي لأجلس في جانب ما بعيد.

لم أفهم شيئًا، وحاولت ألا أتنبه كثيرًا لما يقولون كي أعطي السيد انطباعًا جيدًا عني، لكنني شعرت بـ"السيد" يراقبني، كان يراقب قلبي، كأنما هناك من يجلس في داخلي يعرف الذي أفكر فيه، لذا عندما فكرت: "لماذا يراقبني؟"، رأيته مرتبكًا بعض الشيء، لكن من الواضح أنه متعود على ردة الفعل هذه.

ومع احتياطي الشديد لعدم التنصت، اخترقت أذني جملة قالها أحدهم بعد أن لملم كفنه:

- أؤكد لك أنهم يفكرون بهذه الطريقة، جئنا من مناماتنا البعيدة كي نخبركم، إنهم قادمون من الغرب وأنهم فعلوا ذلك من قبل ولن يوقفهم شيء.

أمَّن الرجلان الآخران على كلامه، وحاول السيد أن يبدو متماسكًا، فتحدث بهدوء ينسجه القلق:

- ربما يتحولون عن أفكارهم.. سنرى.

وقفوا فجأة، بدت عليهم آثار السفر والتعب، أوصلهم "السيد" إلى الباب، وهو يردد كلمات الشكر على اهتمامهم الكبير، كان هناك من ينتظرهم، عاد السيد مهمومًا، ضرب

كفًّا بكف، وكاد يصرخ عندما تنبه إلى وجودي، هدأ فجأة كأنما لم يكن ليبكي منذ لحظة، واقترب مني ونظر في عينيي بحزن:

- قل لي ثلاثة أسباب جعلتني أختارك لتكن المسئول عن الضوء.

حرت جوابًا.. فاستحثني السيد:

- ها.. قل.

- لا أعرف.

اقترب مني "السيد" حتى غاصت عيناه القويتان اللتان تنفذان لكل شيء في ملامح وجهي فأجهدتني:

- ألا تعرف نفسك؟

لملمت صوتي من أماكن بعيدة ومتفرقة في روحي، ومن طرق وصحارٍ وغيوم ووديان تائهة لا تنتمي إليَّ ولا أنتمي إليها:

- ومن يعرف نفسه؟

أجابني السيد سريعًا:

- المبصرون الذين يملكون الضوء يا سيد الضوء، ولتعرف أنه لا يوجد أشقى من واحد لا يملك ضوءًا، أو حتى لا يعرف كيف يجد ضوءه، يتخبط في ظلمات متلاطمة كأمواج البحر الهادرة، وتسكنه الأوهام المخيفة التي تقتات على ظلامه وتفرخ فيه أحزانها، التي بدورها ستقتات على روحه.

- لكنني سأضيء للناس لا لي. (أضفت متلعثمًا).

- أنت أولى منهم، وكيف تمنحنا ما لا تملكه أيها البائس، بالتأكيد ستتركنا في ظلام يشبهك، هل لأن قلبك منطفئ

ستطفئ كائنات الله، كيف تقوى على هذا الجرم، ولم اخترت الضوء إذن؟

شعرت بغضب واحتدت نبرة صوتي:

- لم أختره أنت الذي اخترت لي.

- خوفك هو من بحث عن الضوء، كشف عن نفسه أمام العالمين ومنحنا علامة، كونك لم تر العلامة فذلك لأن عينيك منطفئتان وقلبك مغلقٌ، لكنها علامة شاخصة للجميع أبصروها متلألئة على وجهك.

- أي علامة تلك التي لم أرها أنا ورأيتموها جميعًا؟

- ابتسامة.

- ماذا؟

- ابتسامتك الوحيدة التي سطعت بين جدران بائسة، في مكان لا يبتسم فيه أحد، فِعلك هذا أهَّلك لتمنح الأمل للمنتظرين، كانت ابتسامتك تسري بين المجتمعين فتبل ريقهم وتحرك ملامح وجوههم التي أضناها الترقب، فامنح نفسك فرصة، امنحها فرصة، (قالها السيد هادئًا وهو يسحب نظراته التي كان قد تركها ترعى داخلي).

خيم هواء ثقيل على المكان، وبحثت في داخلي عن كلمة أقولها أكسر بها جبال الثلج المتراصة والمتلاصقة التي تحيط بنا فلم أجد، شعرت بنفسي أبكم، لم أشأ أن ينتهي الحوار هكذا بهزيمة ثقيلة لم أستعد لها كان دوري فيها فقط هو تلقي اللكمات المتسارعة إلى وجهي، ولم أرد مواجهة عينين تقلباني كبضاعة خاسرة مهلهلة تتركها أكثر ضياعًا وبوارًا: ما الذي يريده "السيد" مني؟

أما أنا فأعرف ما أريده الآن، أريد أن أبكي وأن أتذوق طعم الملح الذي شعرت به في السرداب قبل ذلك، وأن تبتل شفتاي ورقبتي بالدمع كي أشعر بالدفء في هذا الصقيع الذي أحاط بي، أخذت أستجدي ذلك وأعتصر عيني وأفتحهما بلا فائدة فكرت أن أذر فيهما التراب كي تسيلا، شعرت بهما جافتين تمامًا، بلا ماء وملح، ألقيت بنفسي تحت جدار قديم، وظللت جامدًا كصخرة صقلتها الشمس وألقت بها على جانب طريق غريب تسكنه الأشباح.

هَلُمَّ إليَّ حتى أراك

تناوشتني السراديب وسلمتني إلى بعضها، مثقلًا بأفكاري وأسئلتي التي لا أجد إجابة عنها، كنت أتنقل بين سراديب دائرية أظل أدور فيها ثم أنتهي إلى الميدان الفسيح الذي بدأت منه، لا أقر في مكان وأحرص على تحاشي كل الذين يلتقونني في طرقهم خافتة الضوء، كنت أراهم جماعات تهيم في مشيها بوجوهها الهادئة وحركتها الرتيبة وقلوبها التي لابد أنها مثلي مثقلة بالسؤال.

الأسئلة تطعنني كل وقت، وكلما حاولت أن أطرحها على جماعة من السائرين في السراديب لا يجيبني أحد، مرة أوقفت واحدًا منهم وسألته رأيت عينيه خاويتين من كل شيء، شعرت ناحيته بالعطف وعرفت أنه ذات زمن كانت لديه أسئلة مشابهة لتلك التي تلح عليَّ لكنها الآن غير موجودة وغير مجابة أيضًا، لقد انزوت الأسئلة في قعر عينيه الخاويتين، شعرت بالخوف من هذا الفراغ، وفي لمحة عابرة مرَّ الحزن بعينيه وانتهى، نظر إليَّ ثم أخذ طريقه مع السائرين دومًا.

ومرة أخرى سألت واحدًا: "أين نحن؟" فأجابني: "نحن هنا"، أكملت سؤالي: "وما هنا؟" فرأيت الفزع على وجهه، وقال: "هنا.. هنا" وانطلق سائرًا وهو يردد: "هنا.. هنا.. هنا.. هنا"، فندمت أنني سألته.

السائرون في السراديب يبحثون عن شيء لا يعرفونه، هذا ما أدركته بعد أن ظللت كثيرًا أمشي خلفهم ثم معهم ثم أمامهم أقودهم لا أعرف إلى أين، فقط نسير ونسير في حركة

دائرية، كل سرداب يسلمنا إلى آخر وإلى آخر، لا نشعر بالتعب ولا بالرغبة في الجلوس والراحة، فقط نسير ولا نتوقف، كنت غير تعبٍ لكنني لم أجد جدوى من السير طوال الوقت بلا فائدة فتوقفت.

ورغم امتناعي عن الانخراط مع السائرين كنت أجد نفسي أقطع السراديب مشيًا على غير هدى أيضًا، كنت وحدي، ربما في طريق مقابلة لهم، بينما يمرون هم بجانبي ولا ينطقون، لكنني في سيري أناجي الطرقات والحوائط الجيرية والرمال، كان السائرون يتحركون في اتجاه واحد ينتهي نهاية واحدة، لذا فكرت أن أسير عكس سيرهم، ربما أصل إلى شيء لم يصلوا هم إليه، كانت أعدادهم أحيانًا تتزايد فيشغلون السراديب بتزاحمهم وأحيانًا يتناقصون بشدة حتى ليكون عددهم ثلاثة أو أربعة، وفي كل حال لا تسمع لهم همسًا ولا يثيرون خلفهم غبارًا، فقط كأنهم ذرات ضوء تنسكب للأمام.

**

في طريقي العكسي ظللت لفترة طويلة أدخل إلى أماكن جديدة لم أمر بها من قبل ولم أعرفها، رأيت الأشياء متقابلة مع السكون والسلام السائدين، كانت الحوائط في أماكن كثيرة آيلة للسقوط ومتهدمة تمامًا في أماكن أخرى، وكانت جحور ثعابين وعقارب منتشرة في المكان، وأعشاش للأفاعي واضحة، ورأيت هيكلًا عظميًا يبدو على عينيه المتآكلتين الفزع، وسمعت أنات تأتي من أماكن قريبة من خلف جدران لم أستطع أن أصل إليها، لقد مررت في هذا الطريق من قبل ولم أرَ شيئًا من ذلك، أصابني الخوف لأني وحدي أرى هذه الأشياء المخيفة في سيري العكسي، تمنيت أن أعود أدراجي وأمشي مع السائرين

في اتجـاه واحـد، لكـن خـوفي دفعـني لأكمـل داخـل الظـلام، وتذكـرت كلمـةً قيلـت في الاجتمـاع السـابق: "إن أكـثر مـا نخشـاه هنـا هـو الظـلام"، لـذا وجدتـني أخـوض فيـه بحثًـا عـن المعرفة.

وجـدت نفـسي فجـأة أمـام سرداب مظلـم لا بصيـص فيـه لضـوء، أخـذت أقـاوم الدخـول والسـير فيـه، لكنـني كنـت مشـدودًا إليـه، لأنـه سرداب غريـب يقـع عـلى مفـرق طـرق، ولأن الظـلام فيـه كان لونـه غريبًـا ولـه رائحـة واضحـة، كأن الـسرداب شُـقَّ بـين جبـلي كحـل يطليانـه ويتنفسـان فيـه ويمنحانـه قلبيهمـا الأسـودين، قلبـت يـدي ظاهرهـا وباطنهـا لـم أرهـا، رأيـت الخـوف الجميـل الـذي كلمـا داهمـني شـعرت بوجـودي، فاكتفيـت وقـررت الابتعـاد عنـه، وعندمـا أوليـت ظهـري لـه سـمعت همسًـا، فالتفـت وحدقـت في السـواد العميـق ولمـا اعتـادت عينـاي الظلمـة لمحـت شـبحًا يجلـس في حفـرة صغـيرة وعـلى وجهـه الباهـت مـن الظـلام آثـار رعـب قديـم تشـكلت منـه ملامحـه القديمـة الـتي كانـت تبـث عطنهـا في المـكان، كان الشـبح يشـير إليَّ أن أقـترب، والخـوف ينبـت مـن حروفـه المثقوبـة بلثغـة ظاهـرة:

- آه.. أنت الذي ستضيء المكان؟

كان في لثغتـه الغريبـة حـس سـخرية يتـوارى خلـف حروفـه الهرمة، وأضاف:

- وهل تبصر أنت أصلًا؟

كنـت مأخـوذًا بهيئتـه المزريـة وكفنـه المتهـرئ، لـم تتبـق منـه سـوى أنسـجة خفيفـة عـلى كتفـه، اقتربـت أكـثر كي أراه، شـبح كأنـه مـزروع في خندقـه الـذي يجلـس فيـه، لـم أر لـه قدمـين تحملانـه، فقـط يـداه تتحـركان كأنهمـا تنبتـان مـن جانـبي الحفـرة، عندمـا تلاقـت أعيننـا رأيـت في لمعـة عينيـه الكثـير، كانتـا غائرتـين

كأنهما سردابان آخران ربما فكرت أن أعبرهما لعلهما يصلان بي لشيء حقيقي وواضح، سألت نفسي: "لما يشكك الناس في قدرتي؟"، وكأنه سمع سؤالي، أو لمح غضبًا على هيئتي، إذ أجابني:

- لا.. لا أقلل منك لكن عليك أن تتنبه.

لانت لهجته معي في الحديث كأنما يريد أن يعتذر عن شيء، وبعد أن اكتملت ملامحه أمامي بدا كأني رأيته من قبل، تلاقت هيئته مع صورة تبين وتختفي في ذهني لرجل يمر في طريق مظلم أيضًا، فجأة تناسيت الجدال الذي من الممكن أن يجرني إليه، وقفزتْ إلى رأسي كل الأسئلة التي أريد أن أبحث عن إجابتها، قلت له في سرعة وبأسئلة متلاحقة:

- أريد أن أعرف من أنا ومن أنت ومن هؤلاء الذين يسيرون في المكان طوال الوقت، وما هذا المكان، ولماذا يخشى الناس إشعال الضوء؟

وأنا أتساءل اختنق صوتي، وبدت على الرجل المفاجأة من أسئلتي المتلاحقة وفي عينيه ظهر إشفاق كبير، لكنه صمت، ولما يئست من إجابته وهممت بالمغادرة وأنا أجر أسئلتي خلفي، فاجأني بصوت تسكنه أشباح أخرى، شعرت بنبراته تأتي من كل أطراف الخندق الذي يستوطنه ورأيت ابتسامة خوف يحاول أن يرسمها:

- لا حق لي أن أجيبك عن كل أسئلتك، ومع هذا سوف أجيبك عن الذي أعرفه بشرط.

وصمت.

بينما أمسك بحروفه المتهالكة قلت:

- أوافق على أي شرط.

بعدما تركته لم أعد أشعر بقدميَّ وهما تحملانني وتتحركان في بطء شديد، وأنا أترك السرداب المظلم إلى سراديب أخرى أصبحت الآن أكثر ظلمة، تحركتُ لا أدري إلى أين أسير ولم أهتم، مررت بالحركة الدائرية نفسها التي فعلتها كثيرًا من قبل، ظهرت لي أشباح تطالبني بالانضمام إليها، أشباح مختلفة الحجم داكنة الهيئة، تشير إليَّ كي أدخل في سراديب بعيدة لم أرها من قبل، الظلام يسود في المكان وأنا أتخبط فيه، سارعت الأشباح إليَّ وشدتني وتنازعتني، تزايد عددهم كثيرًا وأنا لم أقاوم بدأتْ تهويمات تظهر أمام عيني، وامرأة تلبس السواد، وتمسك مسبحة بلا لون، رأيتها تبكي بظهرها المكسور وتقترب لتزيح الأشباح عني، وأنا أسقط، حاولت أن أمد يدي إليها لكنني أمسكت الفراغ، ثم تكاثر عدد الأشباح وألقوا بالمرأة بعيدًا وتكالبوا على رأسي يدقونه بالحجارة، ولم أعد أرى شيئًا.

**

لما أفقت كنت ملقى على جانب أحد السراديب متكئًا على حائط جيري، والضوء منتشر في المكان، لكنني كنت وحدي لا أشباح ولا امرأة ولا حتى واحد من السائرين توقف كي ينظر ما بي، تحسست رأسي الذي حطمه الأشباح لم أجد أثر جرح ولا حتى تورمًا، ظللت في مكاني واضعًا رأسي بين ساقيَّ حتى تمالكت نفسي قليلًا، في الحقيقة حاولت أن أقنع نفسي بذلك، كانت الأفكار التي قالها رجل الخندق أفكارًا مجنونة لا يمكن أبدًا تصديقها، ربما هذا الرجل المجنون أراد أن يجعلني لعبته هذا اليوم فأطاح بي بعيدًا في الهواء، وقذف رأسي ألف مرة في جدار وجعلني كرة يصوب عليها حجارته، أشعل

النـار وأطفأهـا آلاف المـرات فيَّ، سـواني بـالأرض وأعـاد تشـكيلي، رسـم عـلى وجهـي وشـمًا بإبـر وخـازة، قطـع بسـكين صغـيرة غـير مسـنونة شرائـح مـن جسـدي ووضعهـا عـلى سـفود جنونـه، تسـلى عـليَّ، لفظـني عندمـا تأكـد مـن سـوء طعمـي، هـذا الرجـل بعـد صمتـه الكريـه تحـدث ببـطء:

- فقط، سأخبرك حكايات بعض من كانوا قبلك مسئولي الضوء.

ثلاث حكايات عن مسئولي الضوء

الحكاية الأولى: يجر ساقه غاضبًا

لقد كنت باكيًا مع الباكين

ومع النادبات على ضفتي النهر

حكى الرجل المزروع في خندقه:

- "هاشم" كان واحدًا من المسئولين عن بث الطمأنينة في القلوب عن طريق إضاءة المساحات المظلمة في السراديب وما حولها ظاهرها وباطنها، كان ملتزمًا جدًا، تستطيع أن تغمض عينيك قبل ثانية من سطوع الضوء ثم تفتحهما وهو لن يخذلك، سوف تجد الضوء الأبيض المصفر قد ملأ السراديب والأرواح، هو رجل الضوء الأفضل في تاريخ هذه الخدمة، ومن صفاته أيضًا، التي كان لها دور في تشكيل صورته ثرثرته (خاصة حديثه عن امرأة يحبها لكنه لا يعرف شيئًا عن حكايتها الكاملة، امرأة التقاها ذات مرة، ومع ذلك يرفض الحديث عن تاريخها، لأنه لا يعتبرها تاريخًا، في داخله يعرف أنه سوف يلتقيها مرة أخرى)، كل واحد في هذه «المتاهة» يعرف جزءًا من حكايته، كما يعرفونه أيضًا بعرج خفيف في ساقه اليسرى، ليس خفيفًا فهو تقريبًا يجرها خلفه، كان كلامه في موضوع امرأته شيقًا.

في أول مجيئه كان جسده عبارة عن قطع منثورة متخاصمة تم سكبها تقريبًا في فوهة سرداب ضيق، ظل فترة طويلة حتى التأمت جراحه، واستطاع أن يتحرك بساقه العرجاء، في أحد الاجتماعات التي كان مشاركًا فيها تطوع ليصبح مسئولًا عن الضوء رغم تحذيرات الكثيرين له، لكنه كان انتحاريًا في رأيه

لم يقبل نقاشًا ولا رأيا مغايرًا، حينها نظر إليه «السيد» في شك.

يمكن القول بأن «هاشم» كان مثاليًا في متابعة الضوء، ويمكن من باب المبالغة القول بأن الضوء هو الذي كان يتبعه، والضوء في تغلغله يشبه شبكة صياد ممتلئة بالرصاص تغوص داخل المفتون به فتتشبع به ثم تعيد تشكيله.

كان يتكئ على حائط المنامات وعلى أبواب السراديب ويثرثر، والضوء في المقابل يقوى ويزداد ألقه ويحول الليل الأسود إلى نهار أبيض صافٍ حتى كأن الشمس بازغة فيه، يحكي قصصًا تقفز إلى ذهنه مثل موج بحر ممتلئ بالملح والطحالب لا يعرف من أين تأتي، هي تتدفق فقط، وذات مرة بدأ حكاية جديدة، جلس على سور إحدى المنامات وتردد صوته في جنبات السراديب، وبدأ كل الموجودين يشخصون سمعهم:

«كان ياما كان هناك أرضٌ، ليست أرضًا لكنها مياه، وكانت مياهًا كثيرة لا يُعرف أولها ولا آخرها، وكان الناس يعيشون عليها يبنون بيوتهم من الخشب، والبيوت تربط بينها الحبال، فكل واحد عليه فقط أن يشد الحبل الذي يربطه بجاره حتى يصل إليه، ثم عن طريق خشبة صغيرة يجد الواحد نفسه داخل بيت جاره يأكلان السمك الذي كان يقفز بسهولة من الماء إلى البيوت، وكانت الحياة سعيدة. عاشوا هكذا آلاف السنين في فرح وسرور، ولكن في يوم من الأيام أنجبت امرأةٌ بنتًا جميلة سموها «قمر»، لأنها كانت تشبه القمر، الذي يومها غار منها ولم يظهر، وقد زارها كل الناس وفرحوا بها، وفي يوم من الأيام بعد أن كبرت البنت وكانت تلعب في البيت قفزت سمكة كبيرة على خشب البيت أعادتها «قمر» إلى الماء،

فقالت لها السمك ممتنة: ذات يوم عندما يجف الماء اذهبي إلى الشمال في الأرض الخضراء، ولا تسيري على الأرض الحمراء، وهناك سوف تجدين فاكهة وأشجار موز ولبّنا ولحومًا كثيرة وكل ما تحتاجين إليه.

بدأت «قمر» تخبر الناس بما قالته السمكة، لكن الناس كانوا يسبونها ويلعنونها، ثم حدث أن الشمس بدأت حرارتها ترتفع والماء بدأ يتبخر، كل يوم يحدث هذا، لدرجة أن الشمس رفضت أن تغيب وظلت في السماء ترسل حرارتها المرتفعة، والماء يتبخر والبيوت تكاد تلامس الأرض اللزجة.

حينها كان الناس ينظرون للطفلة على أنها ساحرة، وحتما هي من فعلت بهم ذلك، أو فعلها القمر الذي حتمًا غار منها فمكر بهم.

ولما ظهرت الأرض تمامًا بوجهها الطيني الذي لم يتعودوا عليه ونفقت الأسماك وفاحت رائحتها، حملوا أشياءهم وساروا بعيدًا، في البداية كانوا لا يعرفون السير على الأرض الصلبة القاسية، كانوا يقفزون في أماكنهم مثل حيوان حديث الولادة، ينكفئ على وجهه كل خطوة، أخذت «قمر» تناديهم كي يسيروا معها ناحية الشمال في الأرض الخضراء المتسعة، لكنهم عاندوها وساروا عكس ما سارت في الأرض الحمراء لأنها بمحاذاة الماء القليل المتبقي، وقالت لها امرأة عجوز: أنت ساحرة ومجنونة.

ورفض أبوها وأمها السير معها، حزنت الفتاة كثيرًا وظلت تبكي، فحضر لها غراب وقال لها: ما الذي يبكيك يا «قمر»؟

قالت ودمعها يلمع بسبب انعكاس الشمس على وجهها: أهلي ذهبوا جميعًا وتركوني.

قال وقد اقترب منها كثيرًا حتى ظهر فمه الذي بلا أسنان: سوف تقابلين أهلك.

ومن بعيد ظهر فارسٌ يركب حصانًا أسود غاضبًا له حوافر يخرج منها الشرر، وفي يد الفارس سيف يعكس لمعان الشمس الحاد، كان مقنعًا لا تظهر سوى عينيه الحادتين الآمرتين، ظل يقترب من «قمر» التي توقفت في مكانها خوفًا، وعندما أصبح على بعد خطوتين منها، قال لها: اركبي خلفي كي نسبق الريح القادمة التي سوف تقتلع الأخضر واليابس، لكن بشرط ألا تنظري خلفك.

وافقت وركبت خلفه، وأسرع الحصان كأنه يطير في الهواء، وتطاير شعرها خلفها، وسيطر عليها شعور قوى بأن تنظر وراءها لترى حياتها السابقة، قالت لنفسها: سأنظر مرة واحدة فقط ربما أرى أمى، فنظرت خلفها و...

وفجأة توقف «هاشم» عن الحكي وكانت تلك هي البداية..

الناس في هذه السراديب كانوا قد اعتادوا حكاياته، وأرادوا أن يعرفوا نهاية حكاية «قمر»، وجميعهم تمنوا لو لم تنظر خلفها وأن تطيع الفارس المقنع، كان صمت «هاشم» جعل الضوء يخفت ويبهت ويأخذ لونًا أصفر كالحًا، وقبل أن ينطفئ تمامًا تأكد الجميع أن الضوء كان يقتات على حكاياته ويستمد قوته وبهاءه منها.

كان «هاشم» يجر ساقه العرجاء خلفه، صامتًا رغم المحاولات المستميتة لينبس بحرف يشعل شرارة الضوء الميت ويبدد الظلام المتراكم، لكنه يبس ولم يعد ينبت الكلمات، وبالتالي أُضيف لغز جديد للمكان المثقل بالألغاز، فما الذي جعله يصمت هكذا؟ وجعل كلامه الحلو يتبخر في سقف السراديب؟

وعندما انطفأ الضوء تمامًا عقد اجتماع سريع وعاجل.

كانت الوجوه التي يعلوها الشحوب تتوقع أن تُحل عقدة لسانه في ذلك الاجتماع العاجل وفي حضرة السادة الذين يملكون الهيبة المطلوبة لمثل هذه المواقف، لكنه لم يجب عن أيّ من الأسئلة التي وجهت إليه وقال «السيد»:

- من البداية كنت أدرك أن هناك أمرًا وراء هذا الثرثار.

خرج "هاشم" هائمًا على وجهه بعد الإعلان عن الحاجة إلى مسئول ضوء جديد، كان الناس يرونه صامتًا يمر تحت الحيطان المتهالكة يجر ساقه غاضبًا لا يحدث أحدًا حتى انتهى ذات مرة إلى خندقي، ظللت أحدثه وهو لا يرد عليَّ، حتى سمع مني جملة:

- ما كان عليك أن تنظر خلفك.

بعد تردد، نبت صوت هاشم أجش اختلطت نبراته وسكنته لثغة، وأصبح يشبه نقيق ضفادع مختلط:

- مرَّت ولم تلتفت إليَّ.

- من هي؟

- امرأتي التي أحببتها، وكنت أحلم أن ألتقيها وأحكى لها الحكايات.

- ربما لم تَرك.

- كان عليها أن تلقي نظرها ناحيتي، مرَّت وهي تلتصق برجل غريب دميم، لم أرِدْ حتى في خاطرها، رفعت صوتي بالحكاية كي تنظر، فقالت للملعون الذي كان معها: "دعنا نبتعد عن هذه الوحشة"، كانت يدها دافئة في يده وأنا قلبي يملأه

الصقيع، كنت أحكي الحكايات لها لعلها تؤنسها في وحدتها، كنت أظن أنني لا أراها لأنها تبكي في بيتها بُعدي وفراقي، لا أن تحتضن ذلك الغريب في الطريق أمام عيني.

وعلت نهنهته الغريبة قبل أن تنتهي أنات مكتومة، وأضاف من بين تشنجاته: دعني أعبر للناحية الأخرى عبر سراديب الصمت.

- هو يعرف أن مهمتي هي حراسة السراديب الخلفية، لذا أخبرته: فكر قبل أن تأخذ قرارًا بهذه الخطورة.

فصاح:

- مرت ولم تلتفت إليَّ، وأنا التفت ورائي.

الحكاية الثانية: ضوء متزن يملأه الحقد

هبني خبزًا من الذي يقدم من مائدة قرابين سيد الحق

وائذن لي أن أدخل وأن أخرج من الجبانة دون أن تصادر روحي

قال الرجل المزروع في خندقه: سأحكي لك هذه المرة عن رجل ساخر اسمه "عابد" لا يقيم وزنًا لشيء، كانت لغته وكناياته مكشوفة، ودائمًا ما يميل لتحريف الكلمات سليمة النية، ربما هذه هي طريقته لقهر خوفه الذي يملأ روحه ويغلق عليه مسام جسده وتنفسه.

**

لم يكن "عابد" منتظمًا في أداء عمله في حراسة الضوء، لكن تبريراته وأعذاره كلها مقبولة، وتسامحه أو تساهله يوقعه في مشكلات كثيرة، حيث كان يترك الضوء منتشرًا بعد أوانه، ويجعل بوابات السراديب مضاءة بعد وقتها، كي يسمح للمتأخرين الذين خرجوا يطاردون الحقوق الضائعة عند الشحاذين واللحادين الذين تقاسموا "الرحمات" فيما بينهم ولم نحصل منهم على شيء، وبسبب طول الجدل، كان المسئولون عن تحصيل هذا الحق يتأخرون، وكانت الأوامر صادرة بإغلاق السراديب في مواقيت ومواعيد محددة، لكنه يخالف كل ذلك ويترك إحدى البوابات الخلفية مفتوحة، وعادة ما كان الداخلون المتسللون يحدثون جلبة ما ويكتشف الأمر، وذات مرة استطاع بعض قطاع طرق أن يجدوا هذا السرداب المضيء، وتسللوا منه إلى قلب المنامات وحدث الفزع الأكبر، ولولا بعض حكمة كانت موجودة لضاع الجميع، ولكن هذا

الأمر لم يكن سبب انتهاء "عهده"، فقد كان على ما به من سماحة واتساع قلب لا يزال لم يتخلص من حقده.

وأضاف الرجل المزروع فى خندقه: حقد عابد يظهر في تفاصيل صغيرة تتعلق بالمشاحنات التي تكاد تكون يومية، كذلك سخريته من السائرين في السراديب الذين كانوا لا يعيرونه اهتمامًا مما كان يزيده غضبًا. يعترض طريقهم ويترصد لهم بالنكات البذيئة التي تتناول هروبهم واعتزالهم وخوفهم:

- إلى أين تهربون؟ سيروا كما تشاءون سوف تصطادون في النهاية، حركاتكم مكشوفة.

يمرون في صمت ولا ينتبهون له كأنه أثر غبار يصنعه الضوء الكابي الذي يتسلل من شقوق الحيطان، يرفع صوته متهمًا إياهم بالشذوذ فلا تتأثر ملامحهم الراضية، يلقي عليهم الحجارة والرمال وكل ما تصل إليه يده لا يلتفتون كأنه الفراغ، فاعتبر عدم ردهم عليه إهانة لم يقدر على غفرانها وفكر دائمًا في كيفية ردها لهم:

- حتى هؤلاء الجبناء يحتقرونني، سوف أجعل منهم سخرية الجميع.

بحث ووجد الحل في حجب الضوء عنهم علهم يتخبطون في الظلام، فيصطدمون في أعقاب بعضهم ويصيبهم الذعر فيفرون ويتركون زحفهم الممل، وربما كان حظه عظيمًا فتتكشف عوراتهم ويتحولون إلى مزحة كبيرة لا يستطيعون بعدها تجاهله بهذه الطريقة، وسرت ابتسامة ماكرة بين تجاعيد وجهه، لكن الأمور لم تنته كما خطط لها، فعندما منع الضوء عنهم منحهم مهابة كانوا في حاجة إليها، وجعل مرورهم في السراديب طقسًا له سماته، التي منها اختفاء

الضوء، أصبحوا يتحركون كأشباح صامتة تمر في الظلام، وزادت مكانتهم عند سكان السراديب، حينها جن جنونه وسيطر عليه الحقد الذي أطلق هو عليه "كبرياء".

كل ذلك ترك فيه أثرًا غائرًا، وانعكس على مزاجه، فشعر بأن الفشل والعجز هما مصيره الأبدي من قبل ومن بعد، خاصة أن رؤية غريبة متداخلة كانت تتشكل أمام عينيه بصورة دائمة، هذه الرؤية هي حكايات متداخلة يتذكر فيها رجفة أصابت جسده كله قبل أن يشعر بأن عظامه تحترق والدم يتسرب من ثقب صغير في موضع القلب، ويقسم أنه يرى دخانًا يتصاعد من عيني شخص اسمه علي عويس، الذي لا يتذكره إلا وهو مصوبًا بندقية إليه ويطلق النار، لا يتذكر "عابد" الآن لماذا يفعل "علي عويس" ذلك، وعدم تذكره يقلقه ويجعله متوترًا، دائمًا.

الحكاية تبدأ في ذهنه من الرجفة والاحتراق الذي يصيب العظام والثقب الذي "يَبُكّ" الدم والدخان المتصاعد من عيني علي عويس، لكنه لا يتذكر شيئًا آخر قبل ذلك، يحاول أن يرى نفسه قد همَّ على علي عويس وصفعه مثلًا حتى يستحق ذلك الحقد الذي رآه في العينين، أو حتى أن يكون قد وصفه بابن العاهرة مثلًا، أو أن يكون "علي عويس" قد وجده عاريًا فحاول أن يستر نفسه بأي شيء في متناول يده وزوجة علي عويس منسدحة على ظهرها محلولة الشعر وعلى وجهها أثر شهوة مشبعة، أي شيء سوى أن يكون مقتولًا فقط، سوى لزوجة الدم في موضع القلب، لكنه لا يجد شيئًا غير الحقد الذي يملأ عليه وحدته، والآن هؤلاء السائرون في السراديب التائهون أبدًا يسخرون منه كما سخر علي عويس من قبل،

آه.. لقد تذكر الآن، قال له علي عويس بعد أن أطلق الرصاصة عليه:

- لك ما تريد.

ما الذي قصده القاتل بهذا الكلام، الأشياء لا تريد أن تحضر كاملة، ولا يعرف إجابة عن شيء.

بعد أن اعترض "عابد" طريق السائرين في السراديب وشعر بسخرية الجميع منه، خرج من أبواب المنامات ليطمئن على وجود الضوء وبأن أشعته القليلة تتسرب من خلال الشقوق والفتحات للداخل، كان الضوء في عهده متوسطًا لا ساطعًا باهرًا يجعل الضحك يخرج من القلب مطمئنًا ونسًا به ولا باهتًا يصنع ظلالًا وأشباحًا تجعلك تكتم ضحكتك، وتكتفي بتكشيرة تشبه تشقق الوجه، لكنه ضوء متزن يكفي بأن تعرف القادم ناحيتك قبل أن يصطدم بك.

جلس على أبواب المنامات، وعلى البعد منه جلس من عليهم نوبة الحراسة يحيطون بكل مكان في انتظار دخيل يخدعه قلبه ويهيئ له أن مكان الوحشة هو الاختيار الأفضل لتحسس جسدٍ لدن ولسماع صوتٍ مترددٍ تفح منه النشوة، ولا يتأخر الوقت يأتي الدخيل وتأتي المرأة المرتبكة تجر ساقيها من القلق وكلما توغلت في أرض الوحشة فقدت شهوتها. يقول الدخيل لها:

- لن نتأخر، لا تخافي، لا أحد يأتي هنا.

يجلس "عابد" مصوبًا عينيه من على سور المنامات، ويتمنى لو كان الضوء الذي يرعاه متلألئًا وليس متزنًا، يقول الدخيل للمرأة المتلعثمة في خطواتها:

- الضوء خافت فلا تخافي لن يأتي أحد.

عكس شعوره الأول يسعد "عابد" ويفخر لكون الضوء الذي يبثه خافتًا، ويتحفز المسئولون عن الحراسة:

- ماذا يظننا ابن الكلاب هذا.

وتقول المرأة التي بدأت تتمدد على تراب الجبانة:

- الأرض مثل قطعة جليد.

فيفرش الدخيل رداءه تحتها، وبعد أن تسحب هي ثوبها فوق صدرها وينزع عنها قشرتها الأخيرة، تهب فزعة صارخة:

- لقد لمسني أحدهم، قلت لك ألا نأتي لهذا المكان.

وتبدأ في البكاء، يكون الدخيل قد توتر من انزعاجها وارتخت شدته، فيقول وهو يهمس في أذنها ويحاول أن يثبتها على الأرض:

- هيئ لك، ربما حشرة غير ضارة لمست ظهرك.

كان الدخيل يمني نفسه أن تهدأ، يأتي صوته غريبًا كأنه يخرج من قبر، فترتبك أكثر وتلملم أشياءها وتحاول أن تعتدل:

- يد باردة أمسكتني من خلفي بينما يداك على نهديَّ.

ثم تهب واقفة ترفع قشرتها الأخيرة:

- لم يكن عليَّ أن أترك البيت، إنهم يبحثون عني الآن، عليَّ أن أعود، انتظر هنا قليلًا ولا تأتِ خلفي.

وتبدأ في الهرولة، فيرد الدخيل الذي ضاعت فرصته بعد أن خطط لها منذ زمن ولم يجد سوى التوتر والخوف:

- سأنتظر عند المدخل.

"عابـد" مـن فـوق سـور المنامـات لا يعجبـه مـا فعـل الحـراس بهمـا، كان يريدهمـا أن يظـلا، يحـب أن يـرى هـذا التقـارب والتداخـل، وأن يسـمع الأنفـاس المضطربـة الـتي يسـيل منهـا العشـق، يحـب المـرأة العاشـقة.

يشـعر برأسـه عـلى وشـك الانفجـار، ممتـلئ بالقلـق لا يسـتقر في مـكان، تزاحمـه الحكايـات، الضـوء باهـت وبـارد ورخـو حـاول أن يبـث فيـه بعـض الحـرارة لكنـه في كل مـرة يخذلـه لا يعـرف مـا الـذي أصابـه، في جلسـته عـلى السـور قفـزت في رأسـه حكايـة ممتلئـة بالـدفء، حكايـة عـن امـرأة كاشـفة سـاقيها بينمـا كان يضـع رأسـه عـلى فخذهـا، ذات ليلـة مفترجـة، قالـت لـه: "إنـك متعـب"، سـحب رداءه إلى ركبتيـه وقـال: لا تقـولي "متعـب"، فربمـا مـر مـلاكان الآن فضحـكا وقـالا: "متعـب" أو ربمـا كان شـيطانان يتلصصـان عـلى النوافـذ نصـف المفتوحـة مـن فـوق شـجرة ويدليـان أقدامهمـا كثيفـة الشـعر فيسـمعان هـذه الجملـة فيضحـكان ضحـكات شريـرة ويقـولان: "إنـه متعـب"، وضحـكا، تصاعـد الضحـك في روحـه ملتهبًـا منتهيًـا بدمعـة حارقـة، منـذ زمـن لـم يـذق طعـم الدمـع، تركهـا تتسرب إلى شـفتيه وأصبـح قلبـه مثقـلًا بالملـح، وملامـح المـرأة تحـضر الآن غـير واضحـة متداخلـة، العـين في موضـع الفـم والأنـف في موضـع العـين، يهـز رأسـه محـاولًا اسـتخلاص صورتهـا لا يسـتطيع، يقـف عـلى سـور المنامـات محـاولًا الـصراخ، فقـط يريـد أن يتذكـر هـذه اللحظـة كاملـة.

ظـلّ "عابـد" في مكانـه مطرقًـا وحزينًـا، لكـن الضجـة القادمـة مـن خلـف سـور المنامـة لفتـت انتباهـه، الضـوء الرخـو البارد يسـيطر، وصوتـان يمـران يتجـادلان، أحدهمـا يحـاول الهمـس، والآخـر فـج

لا يهتـم، يقـول الهامـس:

- لا داعي لهذا التناحر الأبدي، اكسر الشر واذهب للصلح.

فيرد الفج بصوت ممطوط منفجر كأنه سقوط مبنى:

- لا صلـح أبـدًا، وإن قبّلـوا يـدي، سـأفتح في رأس كل منهـم بابًـا وبوابـة.

وأكمل مستغربًا:

- زمـن ملعـون، كان أبي يسـلخ جلودهـم أحيـاء في الجزيـرة، الآن يطالبونـي بـأن أحمـل كفـني عـلى يـدي وأن يفدونـني بخـروف.

حـار "الهامـس" لا يعـرف ردًّا، وتنبّـه "عابـد" مـن فـوق سـور منامتـه للعيـون الـتي يتصاعـد منهـا الدخـان للفـج، وشـعر بثقـب في موضـع القلـب واحـتراق العظـام الـذي عـاوده الآن، فانتصـب واقفًـا كان أطـول مـن أي نخلـة محيطـة بـه أو تقـع بالقـرب منـه، طولـه يـكاد يصـل للسـماء، وصـاح:

- سمعت الـهامس يقول له يا "علي".

ورد على نفسه:

- لـن يسـخر مـني أحـد بعـد الآن، إنـه هـو عـلي عويـس بعينيـه الضيقتـين مثـل عيـني قاتـل، أريـد أن أسـأله عـن السـبب الـذي جعلـني مثقـوب القلـب وانتهـى بي سـخرية للسـائرين.

غضبـه انفجـر مثـل قريـة دكهـا اللـه ذات مغـربٍ منحـوس، ولمـا كان في طـول السـماء حجـب القمـر فتـوارى الضـوء تمامًـا، وتحـول العالـم لغرفـة صغـيرة مـن الكحـل، وتحـرك "عابـد" في الظـلام حـتى أطـل في وجـه "الفـج" وصـاح بـه:

- لماذا ثقبت قلبي؟

وصرخ الرجل وراح يتخبط في الجدران والدم ينفجر من عينيه، ولما أفاق "عابد" من حقده ورفع كفيه عن القمر وسمح للضوء بالسريان، كان الرجل ميتًا على شاهد قبر، يسيل من عينيه وأذنيه الدم.

لم يشعر براحة، ولم يلتئم ثقب قلبه أو تنطفئ نار عظامه، بعد أن أدرك أن الرجل المنكفئ على القبر ليس علي عويس، فقد صرخ الهامس وهو يحتضن الجسد الملطخ بالدم "خضير.. خضير حمدون.. رد يا خضير".

جر "عابد" خيبته التي شعر بها وانطلق مباشرة لغرفة الاجتماعات، كان الملح يملأ وجهه والدخان يتصاعد من عينيه، لم يعرف أحدٌ ما الذي حدث داخل الغرفة المغلقة، لكن الشقوق في الحيطان زادت اتساعًا، وعندما خرج كان وجهه جافًا أكل الملح شفتيه وأرنبة أنفه، وفي صفوف السائرين المارين ذاب بينهم لا يمكن أن تميزه إلا بوجه سقطت ملامحه من الملح.

الحكاية الثالثة: يحمل وزره على ظهره

أنا الخفي في السحب

أصلح لي الطريق في الجبانة

قال الرجل المزروع في خندقه:

- هل تحب أن تسمع الحكاية الأخيرة من صاحبها؟

لم تعد لديَّ قدرة على القبول أو الرفض، ربما أومأت برأسي أو لم أفعل، لكنني وجدتني دون أن أتحرك من مكاني في مواجهة صوت حزين ينبت من الفراغ، أمد عينيَّ في الظلام لا أسمع سوى الصوت يخرج مندفعًا من قلب الركود.

**

- اسمي "حليم" في البداية ظننت الضوء سوف يشغلني عن حزني، كانت يداي ملطختين بالدم، بعد أن قتلت أخي. حملت جسده الطاهر على ظهري سنة كاملة لا أريد أن أدفنه، طفت به القرى والمدن في النهار، وفى الليل نعود لقريتنا، ولما يأتي الصبح، يطاردني أهل المكان بالحجارة والعصي وهم يصيحون بمقولة أبى: كيف سولت لك نفسك قتل أخيك؟

قلت: يا ناس أحمل أخي على ظهري قرابة عام، وأبي ربما غفر لي، ليس بكم حزني، أنتم مأمورون بالصياح في وجهي ولا تشعرون بالوجيعة.

كأنما كشفتهم على حقيقتهم، كانوا جميعًا قتلوا أخوتهم ودفنوهم تحت أسرتهم التي يضاجعون زوجاتهم عليها.

وحكى "حليم":

- أصاب القرية عجزٌ مفاجئٌ، فيقف الواحد فينا أمام امرأته العارية المهيأة له كأن لم يكن، وفشلت كل حيل النساء الخبيرات في إقامة ما استقر ساكنًا، وكل غنج الحبيبات ضاع سدى لم يترك أثرًا سوى احمرار طفيف على كتف، حتى ظنهم بأن الحل يكمن في بنات "جازية" لم يكن صحيحًا، يدفع الرجل آخر قرش في جيبه ويترك نفسه لبنتٍ شهية تعرف أسرار الدنيا تقلبه يمينًا ويسارًا بلا فائدة، فإن شهد سخرية على شفتيها قتلها و"جازية" لا تغضب، تضغط برفق على أصابع اليد المتوترة:

- في الغد ستكون بنتٌ جديدةٌ هنا بها يكمن الحل.

يرتبك صوت حليم بعض الشيء قبل أن يضيف:

قرية كاملة أصابها العجز مرة واحدة، حتمًا هناك من سحر لها وألقى تعويذة سحرها في قاع بحر، وذات يوم مر رجل عجوز يمسك في يده حمارًا لا يركبه ولا يتركه، وإن تركه يذهب الحمار ما شاء له ثم يعود، ليس عليه "خُرج" ولا به أثر تعب، ولا يعلم أحد من أين أتيا، كلما أبصر توترهم ألقى كلماته عليهم:

- لن تحل عقدتكم حتى تغضبوا.

كيف لا يغضبون؟ وهم طوال اليوم يسبُّون بعضهم ويخربون زروعهم ويضعون السم في الماء لحيواناتهم، والنساء تسعى عند الشيوخ والقساوسة ليكتبن "الأعمال" التي يمكرن بها لبعضهن.

توقف العجوز عن تأملهم: ليس هذا هو الغضب إنما تلك هي الحياة.

وربما راح في سِنة من النوم، أفاق منها عندما أدار له حماره ظهره، وقال:

- الغضب هو ما يصحبه ندمٌ، ولا يكون الرجوعُ فيه متاحًا، هو أن تقف على قمة جبل وترغب في حرق كل الموجودين عند السفح ولا يهمك أن تصعد النار إليك لتحرقك، لو خفت ستكون حاقدًا ولو لم يصبك ذعر فأنت غاضب.

أصبح ما قاله العجوز لغزًا لا يعرفون كيف يحلون شفرته. على المقاهي وفي الشوارع وفى الترع والنهر، تأكل الشهوة قشرة مخهم ويأكل الفكر قلبهم، إنهم مستعدون لحرق وقتل كل شيء لكنهم أبدًا لا يفكرون في قتل أنفسهم، وانتهى بهم الحال للإيمان بأن هذا الرجل فاقد العقل ومجنون، ألم تنظروا إلى حماره ففي عينيه نار، وهو مع كونه رجلًا عجوزًا يهم كما لا يهم شاب في الحركة، واستقروا فيما بينهم على طرده من قريتهم.

وفى الصباح الذي قرروا فيه مواجهته وطرده لم يجدوه ووجدوا الحجرة القديمة كأن أحدًا لم يسكنها منذ قرن، التراب وخيوط العنكبوت تملأ المكان ولا أثر لمربط حمار، كان البيت القديم متهدمًا، وليس هناك سوى الحيرة والعجز والشهوة.

وما زاد الأمر سوءًا ما فعلته النساء، تمشى الواحدة منهن بثوب يكشف نصف صدرها ويعتلى ركبتيها، ناصبة نهديها في وجه المشتعلة أرواحهم، ورغم أن الرجال في المقهى تغلي قلوبهم لكنهم لا يصرحون ولا يناقشون هذه الأمور، فقط العلاقات الغريبة بين حريمهم بدت تطرق آذانهم، وعندما واجه خلف الله العوضي زوجته بما يقوله الناس لم تنكر،

وفي وسط الشارع خلعت ثيابها، ووقفت بيضاء بضة يسيل منها العسل والدمع، تطلعت إليها العيون بنهم وتحسر، وصرخت هي:

- خذني أنت.

فنكس رأسه وجمع ثيابها في يده واعتصرها بشدة، وعندما اختفت زوجته، لم يسأل أحد عن مكانها، وجلس هو في المقهى متكئًا لكنه لم يكن غاضبًا، فلم يشأ أحدهم إزعاجه.

بدأت النساء في الاختفاء، وكل واحدٌ تختفي امرأته، يأتي للمقهى ويجلس لا يبدو عليه الغضب ولا الرضا، يطلب شايًا ثقيلًا وجوزة ويخرج الدخان من فمه وأنفه هادئًا منسابًا بعد قرقرة متقطعة، ربما يسرب أحدهم نظرة إليه لكنه يرجعها بعد أن يدرك أن هذه الملامح المسطحة لن تكشف شيئًا.

"سعدني" كان صوته مزعجًا، وهو يسب القرية المجنونة على حد قوله، بينما يخرج أشياءه القليلة ويضعها على ظهر عربته الخشبية الصغيرة التي كان يبيع عليها قطع "الجيلاتي" بقرش صاغ أو صحن ألمونيوم قديم أو بحذاء بلاستيك أو بعظام، ويدور في القرى القريبة والبعيدة، وكان معظم ما يحصل عليه "عظام ميتين" تأتي إليه من منامات وقبور، قرر أن يهجر هذه القرية للأبد وضع حصيرته وبطانيته القديمة، وساعد امرأته التي تأوهت عندما هم بحملها على العربة الخشبية، وخرج وهو يسب ويلعن ويقول: لتكن حياتكم مع العفاريت مديدة.. هذه قرية مسكونة.. اخرجوا قبل أن تهدم على رؤوسكم.

بعد أسبوع من خروجه استقر داخل الجميع أن لا حل سوى الخروج من هنا، وبدون اتفاق وفي وقت واحد كان كل واحد

يغلق بوابته الخشبية أو يتركها مفتوحة ويحمل طفلًا على كتفه عمره تجاوز الخمس سنوات، لا يوجد رضيع واحد في هذه القرية ولا توجد امرأة ممتلئة بطنها ولم "تتوحم" أي واحدة منذ سنين على شيء غريب أو مختلف. وفي الوقت الذي بدأت حركتنا على أول الطريق، طريق الحلفا، قلنا نسير ناحية الجبانات ومن هناك يذهب كل منا للمكان الذي يريده، أول ما بدأت الحركة، كان غبار كثيف يسد الطريق قادمًا علينا، ولما اقترب كان "سعدني" منهكًا يطلب بعض الماء وامرأته تبكي وعربته الخشبية ممتلئة بالعظم وحماره تبدو عليه الدهشة، وصاح فينا بعد أن ابتلت شفتاه: لا تخرجوا.. لن تجدوا سوى جيش من العفاريت.

عدنا محبطين وظللنا أيامًا لم نخرج من بيوتنا، وبدأنا مع الوقت نعتاد ما أصابنا، ثم حدثت المصيبة الكبرى، طرقات قليلة على الباب كانت كافية لإشعال النار في هذه القرية الحزينة.

كان أخي يقف بالباب مبتسمًا، لا أعرف لماذا؟! الوحيد منذ سنين الذي جاء لهذه القرية، لا أعرف كيف؟ ولم يشأ هو أن يجيب عن أسئلتنا، ولم نرد أن نحدثه عن مأساتنا، لكن نساءنا فعلن وقلن له كل شيء.

أخي، هذا، تركنا منذ زمن، ذهب طفلًا مع أمه التي تركتنا بسبب فقرنا وجوعنا، هي وأبي اقتسمونا، قلت لنفسي: "هي أخذت أخي لكونه الأصغر"، مع أن كلَّ ما يحيط بي يؤكد أنها اختارته لكونه الأجمل والأكثر بهجة، ولأنني أشبه أبي تمامًا، جاء إلينا أكثر من مرة على فترات متقطعة، يأتي كي يأخذ مال أبي الذي لم يكن يرد طلبه لأنه يشبه أمي التي تزوجت مرة

وثانية وثالثة وهو معها، كل بيت هي دخلته هو بيت أبيه، لكنه هذه المرة لماذا جاء؟!

في زياراته يحكي لي الكثير عن مغامراته في شوارع المدينة ودروبها، كأن به مسًّا من شيطان النساء، كان مفتونًا بتتبع البنات، يقول: لا أقاوم رائحتهن ولا أريد المقاومة، كل بيت دخلته غزوته وكل امرأة عرفتها تمنيتها، كنت أحب حكاياته وأخشاها، ذات مرة جاء إلينا وكان منتشيًا بشكل واضح انتظر حتى خرج أبي من البيت ثم همس في أذني: معي امرأة تركتها عند رأس البلدة أريد أن آتي بها هنا، فاجأتني جرأته وقارنته بنفسي المنهزمة وقلت: كيف خلقه الله من أبي وأمي وهو منطلق مغامر وأنا خائف مترقب.

كان قدومه من مدينته مصدر إزعاج للجميع الذين يريدون أن يرونه أمام أعينهم تمامًا، ولا يحتملون أن يختفي عن ناظريهم، يصيبهم الشك في زوجاتهم إن اختفى هو، ويهم كل منهم لبيته ويدخل دون أن يطرق الباب، وأنا كنت أنتظر اليوم الذي سيغادرنا فيه، منحته كل ما معي من نقود كي يتركنا ويعود لمدينته البعيدة، لكنه لم يفعل.. ظل مصدر شك.. واشتكى الجميع منه، وتذكرت أمي تحضنه طفلًا وأنا أبكي وهي لم تلتفت ناحيتي فتمنيت موته.

في النهاية قتلتُه، كانت امرأتي قد اختفت فجأة ولم أعرف مكانها، قلت:

- هو دلها على الخروج، تعيش معي منذ عشر سنوات ولم تفكر في الرحيل، تختفي الآن وهو بمكره يدعي أنه لا يعرف شيئًا وأنه لم يرها.

مـرّ أسـبوع وأنـا أبحـث عنهـا، وهـو المتهـم الأول والأخـير، ثـم اختفـت نسـاء كثـيرات بعـد امـرأتي، وحـام الشـك حـول أخـي، فالمختفيـات لـم يقتلهـن أزواجهـن، لأنهـم لـم يجلسـوا في المقهى بـلا غضـب ولا رضـا، كانـوا يبكـون، وهـم يبحثـون عنهـن:

- أخوك يأخذ نساءنا للمدينة ليصبحن عاهرات.

علَّقت في مكر:

- ابـن الهاربـة هـذا يفعلهـا، فهـو ابـن أمـه الـتي تركتنـا لفقرنـا، وربمـا عملـت هـي عاهـرة هنـاك.

واجتمعـوا بـه في السـاحة الواسـعة، وظـل يدافـع عـن نفسـه والرجـال يصيحـون بـه:

- أين نساؤنا؟

وهـو يقسـم أنـه لا يعلـم مكانهـن، كان العـرق يمـلأ وجهـه وربما اختلـط بدموعـه الـتي لـم أشـأ أن أراهـا، وضاقـت الدائـرة حولـه، فاستعطفهم :

- دعوني أرحل.

خشـيت أن يتراجعـوا ويتركونـه يرحـل، كان أمامـي حجـرٌ كبـيرٌ، كأنمـا سـاقه اللـه مـن السـماء إليَّ، وهـو يـدور في خـوف يبحـث عـني كي أنقـذه، ورأيـت أبي العجـوز يدخـل السـاحة، وأدركـت إن هـو وصـل إلينـا سـيفلته مـن أيديهـم ، فأغمضـت عـينيَّ وصحـت بـه:

- ما الذي أتي بك يا ابن الهم.

فاسـتدار ليواجهـني مسـتقبلًا الحجـر عـلى رأسـه، فانكتـم صوتـه وتناثـر دم رأسـه عـلى وجهـي، وانكفـأ عـليَّ، وصـاح أبي وهـو

يتلقفه بن ذراعيه:

- كيف سولت لك نفسك قتل أخيك؟

ظللت أجري بلا توقف، يهتز جسدي من النشوة والتوتر ولا أستقر على حال، أضحك وأبكي، فجأة توقفت أمام بيت "جازية" وصعدت كانت ابنتها كاشفة فخذيها أمامي في استهزاء واضح، صعد الدم لرأسي فاشتعلت، وعلى "بسطة" السلم كنت قد انتهيت منها، وهي تصرخ غير مصدقة الذي حدث، منذ زمن لم يخترقها شيء حقيقي، كأنما كانت أول مرة لي ولها، صرَختْ وشدت شعرها وأحاطتني بفخذيها.. وبكيتُ.

انتصبتْ واقفة وزغردتْ، لم يكن الناس الذين فاجأتهم الجريمة التي ارتكبتها في الساحة بحاجة ليعرفوا أن هذه الزغرودة جاءت من بيت "جازية" ولما كنت الوحيد الغائب عن الساحة لم يحتاجوا لوقت كثير ليدركوا أن الغضب قد حدث، بحث كل منهم بعينيه عن أخيه وفتش في نفسه عن "سبب" يدفعه ليستعيد رجولته.

بعد أن عاودت اعتلاء بنت الناعسة مرات ارتخيت، ولمحت شبح أخي يمر ممسكًا بيد امرأتي على سور بيت قديم، وللمرة العشرين بكيت فلم أتخيل نفسي قاتلًا أبدًا، ولم يطف بذهني أن أقتل أخي الذي كان كلما جاء من المدينة طفلًا لزيارتنا يأتيني بأشياء أفخر بها على الآخرين، وعندما يغادرنا يترك ألعابه جميعًا لي، ويخفي أسفل سريري كتبه الملونة ويعدني بأنه سيأتي بمجلات أخرى في المرة المقبلة، وذات مرة مددت يدي لأسلم عليه فأحاطها بساعة جلدية براقة كنت قد طلبتها من أبي فرفض.

في الصباح كان علينا أن نذهب إلى كوبري "الرياينة"[4] لنتسلم جثث نسائنا اللاتي كن يسلمن أجسادهن للماء غرقًا تخلصًا من حياتهن الحزينة، كانت الجثث منتفخة والملامح غير واضحة، فلم يعرف كل واحد امرأته إلا بعلامة في جسدها، وكانت الجثث رغم الماء تبكي، قرروا دفن أخي والنساء في صباح واحد، وبعد أن أعدوا أخي للدفن هجمت عليهم وحملت جثمانه وهربت به، ظللت عامًا أحمله على ظهري، في هذه الفترة اختفى أخوة كثيرون للجميع، وبدأ العجز يرحل، ويحل بدلًا منه الندم والكآبة.

وذات مساء، ضاقت الحياة بي وبجثة أخي فأخذت طريق الحلفا للجبانات وحفرت قبرًا لنا معًا، ثم أهلت التراب علينا.

وجدت نفسي بعدها حزينًا جدًا، فاخترت أن أتولى مسئولية الضوء ظنًا أنه سيخلصني من حزني لكن يوما بعد يوم أصبح جسدي يشف وبدأ جلدي يرق وأحشائي تظهر تحت الجلد كثيرة وصاخبة، لذا بدأت ألف الكفن الذي أرتديه على كل جسدي حتى أنه لم يتبق شيء في جسدي النحيل ظاهرًا، حتى رأسي غطيتها تمامًا بالشاش الأبيض، كان يزعجني جدًا أنني أتكشف أمام نفسي بهذا الشكل الغريب.

٤- الرياينة: مكان به "قنطرة" تتحكم فى ماء الترعة الكبيرة فتحجب جثث الناس والحيوانات

على باب المحاكمة

التحيات لكم يا سادة العدل

ها أنذا قد حضرت أمامكم

حتى تزيلوا عني كل سوء

الحكايات التي سمعتها أدخلتني في دوائر لا تنتهي، إضافة إلى حكايات أخرى مرّت بي في طريقي، كنت أفكر بأن كل واحدٍ ممن سبقوني في مسئولية الضوء امتلك شيئًا بسببه تحدث المعجزة، أنا لم أعرف طريقي لإحضار الضوء، ومع ذلك كنت كلما فكرت فيه يأتي، حتى قال لي رجل طيب: "لأنك الوحيد الذي يملك ابتسامة".

**

لم أكن أتوقع أن أستمر فترة طويلة مسئولًا عن الضوء لكنني بقيت حتى قاربت أن أصبح ذا رقم قياسي في هذا الأمر، ومن خلال هذه المسئولية تكشفت أشياء كثيرة وتكونت لديَّ ذكرياتٌ مع المكان والمقيمين والأطلال والأشباح، فالضوء يسمح لي بكثيرٍ من الحرية، أستطيع أن أقول كنت من السادة ولم أكن منهم في الوقت نفسه، أخدمهم بموهبة ولا يتعالون عليَّ، في الفترة الأخيرة كان يُطلب مني أن أخفف الضوء، وفي الاجتماعات التي كان يملؤها الصمت كان التوتر يبدو واضحًا بشدة، وفي الأيام الأخيرة، أيضًا، لاحظت وجوهًا غريبة تأتي من خارج المنامات تشبه تلك التي رأيتها بعد أول اجتماع كنت فيه، تظهر حينًا وتختفي، يظلون في الغرفة المغلقة مع "السيد" وباقي المسئولين فترات طويلة ثم يخرجون بملامح باهتة تُعلن وتُصرح بالفزع، فأصحبهم أنا والحراس حتى باب

الخـروج فينظـرون إلينـا ويهـزون رؤوسـهم ثـم يختفـون.

هنـاك شيء يحـاك لا أعرفـه، لكـن الأشـياء تـشي بـه، سـقوط الطـلاء القديـم مـن الحيطـان المائلـة والشـقوق المتسـعة في الجـدران الخارجيـة للمنامـات، وتجهـم الوجـوه الـذي صـار الهيئـة الوحيـدة لجميـع الموجوديـن، ولأول مـرة سُـمع للسـائرين وقـع خطواتهـم عـلى الأرض، كانـت تشـبه طبـول الحـرب منتظمـة وحـادة ومخيفـة.

ذات مسـاء توقـف أحـد الحـراس أمامـي لمـا هممـت بالخـروج لمتابعـة الضـوء خـارج السراديـب ودون أن يتكلـم رسـم عـلى أحـد الجـدران سـهمًا ثـم محـا الرسـمة وأسرع بالاختفـاء، كانـت هـذه هـي العلامـة المتفـق عليهـا للاجتمـاع الـسري الـذي يعقـد، أحيانًـا، وأشـارك فيـه بصفـتي مسـئولًا عـن الضـوء، كان الاجتمـاع يعقـد عـلى فـترات طويلـة، وعرفـت أن للقلـق الـذي يحيـط بنـا في الفـترة الأخـيرة دخـلا مـا.

مـررت بالسراديـب المتداخلـة حـتى وجـدت نفـسي أمـام قاعـة التقاريـر، كان جميـع المدعويـن تقريبًـا قـد سـبقوني إليهـا، رأيـت بعـض الوجـوه الغريبـة الـتي لـم أرهـا مـن قبـل، ملامحهـم الـتي ينقصهـا الضـوء مرتبكـة ومتوتـرة، وقبـل أن يبـدأ "السـيد" الـكلام كان الرجـل المـزروع في خندقـه قـد دخـل محمـولًا عـلى نعـش خشـبي والضـوء الخافـت يعانـد عينيـه الذابلتـين ويعاكسـهما، أنـا لـم أره مـن قبـل في درجـة ضـوء حـتى لـو أقـل مـن ذلـك، رأيتـه يرتـدي الظـلام دائمًـا، تقـدم حاملـوه إلى الصـف الأول وأفسـح له الجميـع مكانًـا، كثـيرون تفاجـأوا بـه لأنهـم لـم يـروه مـن قبـل، وبعضهـم أشـاح بوجهـه بعيـدًا حـتى لا يراهـم لأنـه يبـدو أنهـم التقـوه ذات مـرة في تسـكعٍ صعـبٍ في السراديـب ولـم يكـن اللقـاء

حسنًا، تنبهت إلى أن الحراس أكثر من الحاضرين المرتبكين كثيري التلفت حولهم، كل ذلك جعل الترقب المشوب بالقلق يسيطر على أجواء الاجتماع الذي بدأ بلا مقدمات أو ترحيب، قال "السيد":

- يفر الواحد فينا من قدره إليه، يا من تملكون أسماءكم ويا من تجهلونها، كتبت عليكم "المعاناة".

وقبل أن يكمل "السيد" سرت همهمة بين الحاضرين، ما توقعوا كلمة بهذه الصعوبة "المعاناة"، وسرى الخوف في قلبي فانفلت الضوء مني هاربًا قبل أن أستعيده باهتًا، ونظر الجميع ناحيتي كانوا شاحبين مثلى، في هذه اللحظة تمنيت لو قالها رجل ساخر:

- "المعاناة" وما الذي نعيش فيه إن لم تكن هي؟

لكن أحدًا لم ينطق، الهمهمات أثارت حفيظة السيد، فحرك ذراعيه النحيلتين وكأنما يهش الخوف والقلق والفزع والرعب والترقب عنه ويلقي بها ناحيتنا، فتحرك الحراس من أماكنهم مقتربين في حركة منظمة من الواضح أنهم تدربوا عليها كثيرًا، فأصبح خلف كل واحد منا حارس، و"السيد" يهدد:

- هذا ما جنت أيديكم ربما دون اختيار منكم وربما بإرادتكم الكاملة.

ونظر ناحية الرجل المزروع في خندقه وأكمل:

- لم أفهم ما تريدون كنتم ضائعين في سراديبكم فخففنا عنكم، وخلَّفتم الوحشة وجئتم لتشاركونا كل شيء، فلماذا تأكلوننا بخيانتكم؟

وارتفع صوته صاخبًا:

- أيها المجرمون نسيتم كيف كنتم ورقًا في الريح السوداء تلقيها يمينًا ويسارًا، إن حالنا وحالكم مثل خراف رجل ورثها عن أبٍ لم يعلم حالها ومبتغاها كان يريد أن يسلمها لجزار يذبحها ويقبض ثمنها، فحميناها من يدي البائع والجزار، فما كان منها بعد ذلك إلا أن أكلت المراعي حتى تصحرت وشربت الماء حتى جفت أبارها ثم ولت ناحية الصحراء متفلتة لا صوفًا أعطت ولا روثًا خلّت، فليتنا تركنا أرواحكم الضالة للريح السوداء وليَدِ الجزار.

كان هتافه كاشفًا عما في نفسه من قلق، ورأيته لأول مرة عجوزًا منحني الظهر، وكفنه متهدلٌ على كتفيه، يقاوم بالكلمات إحساسه بالعجز، وفجأة سأله أحدهم السؤال الصحيح:

- ما الذي تريد قوله صراحة؟

قال في نبرة لها مخالب لم أتوقعها منه:

- أريد أن أحدثكم عن العدو الذي يتربص بنا، الذي يريد أن يقضي على اطمئناننا ويأكلنا مثل شيطان.

انتصبت آذاننا خشية أن يفلت اسم العدو، فلا نقدر على أن نمسك به ثانية، ومعرفة العدو نصف النصر، هكذا فكرت وأنا أمد وجهي كله ناحية الصفوف الأولى كي أعرف من يريد قتلي.. لكن "السيد" لم يقل كلمة "القتل" خلال حديثه المرتجف، أنا الذي فكرت فيها، لكنه ما دام هناك تربص فهناك قتل، هكذا فكرت للمرة الثانية و...

- أنتم العدو

وانطفأ الضوء.

بالتأكيد مرّ وقت طويل حتى استوعب بعضنا الجملة

السابقة، لكنني لم أستوعبها، كان الحراس قد تحركوا خطوة للأمام، وكبلوا حركة الموجودين بسهولة، فقال الرجل المزروع في خندقه:

- اتهامٌ بلا دليل سبب مفضوح للتخلص من الناس.

أشار "السيد" إليَّ، ثم تحدثَ مطمئنًا لأول مرة موجهًا كلامه للرجل المزروع في خندقه:

- ما رأيك في "فاضل"، هل تصدقه لو قال؟

ارتبك الرجل الخارج من خندقه ودارت عيناه بيني وبين "السيد" وتردد قبل أن يوافق:

- أصدقه.

لم أكن قد استوعبت شيئًا مما يحدث لكن شعرت بأنني أخسر الآن شيئًا غاليًا لا أدركه، أنني جزئيًا بدأت أتحول إلى جاسوس عن أناسٍ بعضهم لم أعرفه من قبل ولم ألتق به، غصة في حلقي ودفعة قوية من الحارس الذي يقف خلفي كانتا كافيتين لأن أصبح خارج الجموع وفي مواجهتهم وبالقرب من "السيد" الذي قال وهو يتكئ بأريحيةٍ على مقعد حجري:

- قل لهم يا "فاضل" كيف كان هؤلاء يتآمرون على أهل السراديب، ويفكرون في تدميرهم، وخبّرهم عما كنت تراه بالليل في الظلام، وهم يفارقون السراديب والمنامات ليشوا بنا لأعدائنا مؤملين بانقلاب يجعلهم سادة، واحكِ عما تقاضوه مقابل أن يسربوا أسرارنا وما عرضوه عليك ليشتروا صمتك..

كنت مذهولًا، لا أتذكر شيئًا من ذلك، بينما الرجل المزروع في خندقه تسقط من جانب فمه ابتسامة حزينة:

- دع فاضل لا تورطه في شئون هو لا يعلمها.

سارعت:

- أنا لا أعلم شيئًا مما تقوله يا...

قاطعني "السيد" غاضبًا ومندهشًا ومتوترًا ومشتعلًا تقريبًا بعيون ضيقة يتصاعد منها الغضب:

- إذن فقد اشتروك وجعلوك تغير أقوالك التي قلتها لي من قبل فأنت واحد من المتآمرين على أهل السراديب الطيبين.. وليجرى عليك ما يتم عليهم.

ومن الأركان المظلمة للقاعة خرج شيوخٌ لم أعرف أين كانوا يجلسون، كنت في رعب حقيقي، وتمنيت لو حدث شيء يمحو هذا المشهد تمامًا من الوجود، وأن أكون الآن في طريقي لمتابعة الضوء خارج السراديب، لكنه لم يكن، فقط الشيوخ الذين ولدتهم الجدران الآن بعد أن تمخض عنهم كلام السيد، يقتربون من المنصة، ويقرأون من كتاب منشور بين أيديهم:

- الخائنون لا مكان لهم سوى سراديب الظلام ينتهون إليها بعيدًا، أرسلهم إليها، ولا تجعلهم في مكان واحد بقلوبهم السوداء التي يبكى الحجر منها، واجعل بعضهم خدمًا في السراديب الخلفية.

التقط السيد أنفاسه الهاربة بارتياح غريبٍ وألقى عليَّ نظرة متشفية:

- فليكن.

العمر الثالث

السراديب السبعة للحياة الجديدة

وهم صُمُوت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة[5]

منذ البداية كنت مدركًا للتغيرات التي انتهيتُ إليها، وعارفًا بالسراديب الخلفية التي صرت فيها، لكنه إدراك الجاهل ومعرفة الواهم، فعندما كنت أسير من قبل وأتسكع أمام البوابات وفي الأزقة والحنايا، عرفت أن خلف هذه الجدر المتهالكة سراديب مظلمة يدخلها المخالفون أو الباحثون عن الوحدة، لكنني أبدًا لم أتوقع أنها الجحيم بعينه فاغرًا فمه يلقم كل شيء يلقيه إليه رجال الكلمة الواحدة في سراديبهم المضيئة.

لن أقول الليلة الأولى في سرداب الصمت كانت طويلة، لأنني أشك في معنى الطول، فهي لم تنته أبدًا، ولم يتغير لونها الحالك بسهولة، فبعد إصدار الحكم في قاعة الاجتماعات بنفينا للسراديب الخلفية خدمًا وعبيدًا وضائعين، تكالبت علينا أيادي الحراس تقيد أيدينا من خلاف في حبل طويل ممتد وتحركوا بنا خارج القاعة، ومن رأسي المنحنية لمحته للمرة الثانية منذ مجيئي المكان، كان الموت يشيعني بابتسامته الوحيدة التي تنشب أنيابها في قلبي لأنها مسكونة بالسخرية، وعلى جانبي الطريق كان كل أهل السراديب يقفون، لا يزال الرأس المنحني تحت اليد القوية للحارس لا يسمح لي سوى برؤية الأقدام الحافية التي تضرب الأرض الآن ضربات خفيفة رتيبة تتناسق مع الحجارة الصغيرة التي يقذفوننا بها فتجلد أجسادنا، وفي صوت جنائزي خشن يلعنون مجيئنا.

٥ - مفتتحات العمر الثالث من كتاب «التوهم» للحارث المحاسبي

رغم الحيرة التي انا فيها تذكرت عيونهم الخاوية من المعنى عندما التقيت بهم أول مرة وظننت البراءة التي تملأ وجوههم هي معناهم الحقيقي والوحيد، لم أكن أدرك أن قلوبهم القاسية تسكن خلف الجلد الشاحب والكفن البالي، وفي شدتي فكرت: هل أنا مثلهم بوجه بريء وقلب مثقل حتى حافته بالسواد؟ ورأيت في السؤال وسيلة تناسيت بها قدمي الداميتين واليد الثقيلة للحارس.

هنا عرفت الأشياء دون أن أسأل عنها، ودون أن يخبرني أحد بحقيقتها، كان الأمر مثل هاتف دق باب قلبي فأدركت أنني ملقى في سرداب الصمت منذ زمن، لا شيء يدل عليه سوى ذقني التي طالت حتى اصطدمت بنحري، وكفيّ اللتين تضربان بعضهما بلا صوت، وفمي المفتوح عن صرخة لا تخرج منه أبدًا ونهنهتي التي أعرفها من اهتزاز جسدي، وتنفسي الذي يمر بلا نتوءات، فأتذكر السكون المخيف الذي التقيت به من قبل.

هنا لا أملك سوى تذكر الأصوات، فتحضر أمام عيني صورةٌ قديمةٌ مهتزةٌ لا أعرف زمنها، لكنها قديمةٌ جدًا، كأنما مرّت عليها قرون، في الصورة الضبابية رجل يبكي بصوت عالٍ متشنج، بينما أنا ممددٌ على سرير مرتبك أمام طبيب يقول في حيادية:

- ابن أخيك لن تصيبه سوى البهدلة لا تأتي به ثانية وانتظر قضاء الله.

هل أتخيل ذلك أم أنه حدث فعلًا، وإن حدث فمتى وأين؟ هذه الخيالات هي متنفسي الوحيد في هذا الصمت الذي لا أسمع فيه أحدًا ولا يسمعني أحد.

بعدما اعتادت عيني الظلمة وتراجع السواد مانحًا فرصة للون الرمادي استطعت أن أرى بعض الأشقياء مثلي الذين ألقتهم مصائرهم الرديئة هنا، شعرت براحة نفسية نوعًا ما، كانت أجسادنا كأنها تسبح في الفراغ، نمر متقاربين بلا صوت ولا حفيف هواء، نشير بأيدينا وتتحرك شفاهنا مفتوحة ومضمومة فنخمن ما نتبادله كأنه حديث مكتمل، وعندما صنعنا قاموسنا الإشاري وبدأنا نفهم بعضنا، ربطونا في حبل جديد وألقوا بنا في سرداب آخر.

لكن اللون الرمادي للحياة لم يأت فجأة، كان مختلطًا بدمنا، فلم نكن أول من وطئت أقدامهم أرض سرداب الصمت، سبقنا آخرون إليه لم أرهم من قبل، فليس منهم سائرون في السراديب ولا مسئولو ضوء، ولا يملكون الحقيقة التي يملكها الحراس، بعدما ألقي بي هناك كنت مشدوهًا لرؤية هؤلاء القدامى، وساعد الظلام على ذلك، فقد ترك الزمن والصمت لمساته القاتلة على وجوههم، بكيت في البداية عندما تخيلت أن مصيري سيكون مثلهم، وتمنيت أن يتنبه السيد للخطأ الذي حدث ويأتي حارس، غليظ الطبع، يخرجني من الجحيم، جلست بجانب الباب في انتظار الرحمة المفاجئة التي تأخرت طويلًا، كانت هناك عينان ترقبانني من بعيد، شعرت بهما، فرغم الصمت كانت لغة العيون قادرة على التواصل، تحرك صاحبهما ناحيتي وحرك يديه فعرفت أنه لا فائدة.

ما الذي يمكن أن أفعله في هذا الصمت، أن أدور مثل السائرين في السراديب، أم أن أفكر في هدم هذه الحوائط الخربة على رؤوس الجميع، وأن يسقط أكبر حجر في المكان على رأسي، حينها قد أعرف من أنا وأين أكون، الوقت أصابه الملل، لأنه

وقع بين آمال الخروج وتَذكُر الفترة التي كنت فيها مسئولًا عن الضوء، حيث أبحث وسط التراكمات العادية عن الخطأ القاتل الذي فعلته وانتهيت بسببه هنا.

منذ ظهورى فجأة في السراديب لم أفعل شيئًا يؤخذ عليَّ، لم أتواطأ مع أحد، كان كلامي قليلًا مع الجميع، والغرباء الذين كانوا يأتون من خارج المنامات لا يدخلون أو يرحلون إلا بأمر السيد نفسه، ولا يحق لي الحديثُ معهم، إذًا من أين جاء الاتهام، ألم يغفروا لي أبدًا هروبي الوحيد والفاشل؟

أتذكرها الآن، مرة واحدة هربت لكنني عدت مكسورًا، فذات ليلة كنت غاضبًا من نفسي كارهًا لوجودي في مكان لا أعرف فيه شيئًا، خرجت لأتابع الضوء وأمر بجانب الأسوار، وجدتني أفتح البوابة الحديدية وأصير فجأة خارج السراديب، لم يكن هناك هواءٌ لينعش روحي، كان الجو راكدًا وقلبي خذلني، نظرت للقمر المكتمل وعرفت أنه كافٍ هذه الليلة ليجعل أهل السراديب مطمئنين، وضعت قدميَّ على طريق الجبانة المزروعة بالحلفا، جعلتُ المنامات ورائي، ووجهي ناحية البيوت، أمرُّ خفيفًا أكاد لا ألمس الأرض، فقط قليل من الندى يلمس أطرافي وأشم رائحته.

لم أكن أعرف إلى أين أذهب، لكن قدميَّ كانتا تعرفان فسلمت نفسي إليهما، بعد أن قطعت مسافة طويلة في الطريق الترابي فكرت كيف جرؤت على الخروج من السراديب، كنت خائفًا أجري حتى أن كفني أفلت إزاره فأمسكته بيدي، كأنما يد سحرية تقودني دخلت القرية من ظهرها، وبدأت بيوتها وأطلالها تتضح شيئًا فشيئًا في داخلي، ومن شارع لدرب وصلت للبيت الصامت مثل قلعة قُتل جنودها جميعًا

فأصبحت خاوية، ولا يزال الليل يلقي حمله الثقيل على الحوائط والبوابات الخشبية، اتكأت على ما تبقى من جذع شجرة الفيكس فلم أشعر بدفء أو ببرد، سألت نفسي: "كيف سأدخل البيت، هل أطرق الباب أم أصرخ بصوت عالٍ أم أنتظر أن يأتي الصباح"، عندما شعرت بالتعب جلست على الأرض محتميًا بجذع الشجرة المقطوعة، ونبحت الكلاب بشكل متواصل فأصابني الرعب.

حركة خافتة أتت من أول الدرب كانت كافيةً لأهب واقفًا وأن يعلن قلبي خوفه، وبلا وعي التصقتُ بجذع الشجرة أحتمي به، كان رجلٌ غاضبٌ قادمًا من الناحية الأخرى متكئًا على بندقيته يتحرك ناحيتي بلا مواربة، عيناه الضيقتان تلمعان بالغضب ومسلطتان على وجهي الممتقع، خطواته تقترب وأنا شاخص في مكاني ألعن نفسي، أردت الجري بعيدًا أو الصراخ مستغيثًا بمن في البيت، لم أستطع، هذا الوجه ليس غريبًا عني أخشاه وأعرفه، وفي قلب الخوف تذكرت عمي القاتل خضير حمدون وهو يدخل البيت مندفعًا مثل ثور هائج يتخبط في الأشياء ويلعن الجميع، والنساء تختلط خطوات أقدامهن المتلعثمة ونشيجهن الخائف في غرف البيت، وجدتي نزعت ضمادة الماء عن رأسي الملتهب، وحاولت أن تقف لكن ظهرها انحنى أكثر بشكل خطر، وقالت:

- فعلها ابن القحبة وأحيى الموتى.

واختفى الضوءُ فجأة، لم أعد أتذكر شيئًا، لكن الرجل المحفورة ملامحه بتقاسيمها القاتلة يقترب ويحمحم بكلمات غاضبة، لم أقدر على فعل شيء، خطوة واحدة للخلف جعلتني متوحدًا مع جذع الشجرة المقطوعة، ومر هو أمامي

تمامًا حتى لمسني جلبابه الصوفي الثقيل الأسود، عيناه غاضبتان تحرقان كل ما يقع أمامهما لكنني لم أكن موجودًا في عينيه لم أر صورتي، فقط كانت صورة البوابة الخشبية الكبيرة مشتعلة بالنار في بؤبؤ العين، ومر من جانبي لا يفصل بين جسدينا سوى ما يكفي لمرور هواء ثقيل برائحة العرق الخائف، لم يرني، كانت عيناه مصوبتين ناحية البوابة الكبيرة نظر في اتجاهها طويلًا ثم بصق، حينها عرفت أنه سعد سليط شقيق سلمان سليط الذي قتله عمي خضير حمدون.

لم يرني أم لم يتنبه إليَّ؟، ليس مهمًا الآن المهم أنني نجوت، ومن ورائه مر طفلٌ يتبعه يحمل في يده بندقية ثقيلة بالكاد يمسك بها، ظلت عينا الطفل معلقتين بوجهي طويلًا، والخوف والدهشة مرسومتين على ملامحه، وكلما ابتعد عاد ونظر ناحيتي في استغراب أكثر، حتى اختفيا في نهاية الدرب.

وقلت في نفسي:

- لو رآني سعد سليط لقتلني.

ثم أُغمي عليَّ.

وقد غلب على قلبك الندم والتأسف

في السراديب الضيقة أفكر في المساحات الواسعة التي مررت بها من قبل، تحضر في ذاكرتي مبانٍ تتسع بامتداد رؤية العين، مرتفعة ومتداخلة، وضجيج لا آخر له، ليست الصورة جميلة لكنها مختلفة، وفي الفترة الأخيرة أصبحت أستريح لهذه الخيالات وأنتظرها؛ لأنها تنقذني من الموت خوفًا في هذا العالم السفلي الذي ألقونا فيه.

كنا قد تركنا سرداب الصمت منذ فترة طويلة، علاقاتي مع الآخرين مقطوعة، رغم فرحي بسماع أصواتهم، لكنني لم أتحدث مع أحد، لا أقول شيئًا، فقط أسمع الثرثرة الفارغة.

لاحظت أحدهم وهو يقترب من أحد الجداران، ويضع أذنه يتنصت، ويغير مكانه ويهرول على طول الجدار وأحيانًا يضحك، ولمّا تنبه لتتبعي له اقترب مني وبعينين لامعتين همس في أذني:

- وراء هذا الجدار نساء يغنين.

قال ذلك وانفلت ناحية الجدار يتنصت من جديد، وأنا غير مصدق لما سمعته، وتساءلت: "هل وصل الجنون إلى هذا الحد؟، حاولت أن أُبعد عيني عنه لكنني لم أستطع، ظللت أراقبه وعيناي معلقتان بكل خطواته، فتنبه إليَّ مرة أخرى، فكر قليلًا ثم عاد وأمسك بيدي وجذبني بعنف ناحية الجدار، ودفع برأسي كي تلتصق به، حاولت المقاومة، لكن بالفعل كان هناك حكيٌ بصوت خفيض غير واضح وفي نهايته انتشرت ضحكة لا تأتي إلا من حشد نساء، كان صاحبي حينها

يمسك شيئه بيده ويلصق وجهه في الجدار وقد غاب عني تمامًا، لحظات وارتجف جسده، وتهاوى على الأرض:

- اسمي زين أتتبع ضحكات النساء وغناءهن.

- وأنا اسمي فاضل لا أتتبع شيئًا.

كانت تشنجات جسده الأخيرة حاجزًا نفسيًّا بيننا، كيف يجرؤ على هذا الفعل المخزي أمام الناس، لم أتخيل أن يحدث مثل هذا التصرف وسط هذا الخوف الذي نعيش فيه، ويبدو أنه شعر بما أحس به ناحيته، لكنه لم يهتم، كان في حالة من النشوة، ابتسم فقط، وأنا صامت، قال وهو يحاول أن يبدو مندهشًا:

- اكتشفت ذلك الأمر مصادفة، كنت ذات مرة أبكي، بجانب الجدار وسمعت غناء من الجانب الآخر فنسيت ما كنت فيه، وحتى الآن لا أتذكر لما كنت حزينًا في ذلك اليوم وممتلئًا بالبكاء، فقط تذكرت الغناء والضحك، كانت أصوات النساء تهز الجدار فيسقط منه طلاؤه الجيري تحت قدمي، وما زلت أسمع الضحك وأرى سقوط الطلاء كل يوم، وكنت أنتظرك كي ننفذ خطتنا التي أعددتها.

نظرت إليه في دهشة:

- تنتظرني، وهل كنت تعرفني من قبل، وأي خطة تنوي تنفيذها، ومن أنت؟!

رد بتلقائية مستفزة:

- أنا زين، أتتبع ضحكات النساء وغناءهن، وكنت أنتظرك بالطبع، في مرة أخذت أنادي الساكنات وراء الجدار وأتوسل إليهن أن يكلمني، كان صوتهن يذهب ويجيء، أصبح صوتًا

مسكونًا بالخوف، وضحكهن أصبح يشبه النحيب، يبدو أنهن فوجئن بوجودي مثلما فوجئت بهن، وبعد أيام كثيرة من بكائي لهن، همست إحداهن في أذن الجدار "لا تأتِ وحدك"، ومن يومها كلما وضع أحدهم أذنه لم يسمع شيئًا، أنت وحدك سمعت، فأنت المقصود أن تذهب معي.

لم أفكر أبدًا أن أذهب لأي مكان، ومنذ محاولة هروبي التي عدت منها لا أعرف كيف، لأنني عندما أفقت من غيبوبتي كنت في السرداب ملقى بجانب أحد الحيطان الجيرية وحدي، لم يكلمني أحد ولم يقل لي كيف عدت من أمام البيت، وهل رآني أحدٌ من أعمامي وأعادني، وهل مرّ سعد سليط، وهو عائد في الدرب الطويل، ورآني ملقى أسفل الشجرة فأصابه الفزع وفر هاربًا، وقلت: أنا لن أذهب لأي مكان جديد.

ملامح وجه "زين" مستقرة على ابتسامة ثقة، أخبرني ألا أضيع الوقت، وعلينا أن نبدأ في تنفيذ الخطة سريعًا، قبل أن يلقوا بنا في سرداب آخر.

فجأة غيرت رأيي وفكرت: وما الذي سأخسره لو نفذنا خطته التي لم أعرفها بعد؟ ها أنا متهم بالخيانة مع أني لم أفعل شيئًا، وملقى في سراديب خلفية بلا ذنب، وما الذي سيخسره رجل ضائع مثلي، قلت له: "موافق دون شرط" فاتسعت ابتسامته.

كل ما فعله "زين" بعد ذلك كشف عن جنونه بشكل واضح، فما إن أبديت موافقتي، حتى هبَّ واقفًا يروح ويجيء في كل شبر بالسرداب، يضع أذنه يتنصت، ويهمس كأنه يقول ترنيمة:

- يا نسائي اللواتي لم يمسكنَّ بشر إنَّا قادمان إليكن، أنا وفاضل.

ثم نظر إليَّ مبتسمًا في بلاهة وأضاف:

- أو فاضل وأنا، أنتن كثيرات ونحن اثنان، لكم ما تردن منا ولنا ما نريد.

وتهدج صوته كأنه في صلاة:

- لا تحرموننا شيئًا أيتها الجميلات ولا نحرمكن.

وأشار بيده فاقتربت، أخبرني أن نبدأ العمل فورًا، كنت حتى هذه اللحظة لا أعرف خطته، ولما تساءلت قال في تلقائية مستفزة:

- سوف نصنع نفقًا بين السردابين.

ولم أجد في داخلي رغبةً في إبداء الدهشة.

لم يهتم أحد بما نفعل، يمر الآخرون يلقون علينا ابتسامة سخرية ولا يعلقون، كانت الطبقة الأولى من الأرض صخرية ونحن نحفر مستخدمين حجارة مسننة، فلا معاول حقيقية ولا فؤوس، كنَّا نتخلص من التراب بأيدينا، نتعب فنستريح في المكان نفسه، اختار "زين" أكثر الأماكن نقلًا للصوت وحفر أسفله، قلت: "لماذا لا نهدم الجدار" فرد: "نساؤنا تستحق أفضل من ذلك" فلم أفهم، ولم يزد هو كلمة أخرى.

قضينا وقتًا طويلًا في الحفر قبل أن نصل لأساس الجدار الطيني القديم، كان الجزء الأصعب فيه مكونًا من حجارة وعلينا أن نجتازها ونمر أسفل منها، ثم نبدأ الحفر للناحية الأخرى، فاجأتني الشعيرات البيضاء التي بدأت تنتشر في ذقن "زين" وشعر رأسه، فهمت أن سنوات مرت بينما نحن نحفر النفق، هو لم ينته وأنا لم أتراجع، كلما حفرنا في اتجاه الجانب الآخر كانت رائحة النساء تنتشر فتملأ روحينا

بالعزيمة، وهمست واحدة لنا: "أنتما على وشك الوصول"، كان صوتها قريبًا حتى أنني شعرت به يلامس وجهي.

"زين" يستريح قليلًا ويحكي عن مستقبله مع الجميلات، كان وجهه قد امتلأ بالتجاعيد، يقول في خشوع:

- سأحضنهن جميعًا، سأمد يدي إلى شجراتهن المختلفة، حتما سيكن مختلفات، ولابد بينهن امرأة سمراء يكاد يقتلها الشبق، ستغمض عينيها على وجهها إن رأتني وتفتح فخذيها، سأقضي يومًا كاملًا أُقبّل أعضاءها قبل أن أمسها بخير، وامرأة بيضاء ستمسك بيدي وترسلها في نهديها لتوقظ روحها، سأطوف بينهن عاريًا أبارك جسدي بين قبابهن وسفوحهن.

يغمض عينيه ويهمّ بشيء ثم يخجل من وجودي فينطفئ.

أصبحت حركة النساء قريبة، أصوات أقدامهن الراقصة على قشرة الأرض تعلونا ونحن نأكل بأيدينا باطن الأرض، نريد أن نصعد إلى السطح، وأن نأخذ أماكننا في الرقصة الجماعية الدائرة بالخارج، كانت الجروح تغطي ساعدي "زين" وجسده جف بطريقة ملفتة، ومن باب قتل الوقت سألته:

- ما الذي أتي بك للسراديب الخلفية؟

- أنا هنا منذ قديم، لا أتذكر كيف جئت، لكنني أشعر بأن امرأة دفعتني على حين غفلة فسقطت هنا، وكل ما أتذكره أنني في لحظة ما كان جسدي ممددًا بين نساء كثيرات لا أعرف عددهن، وجوههن حزينة وأجسادهن أنهكها العطش لشيء ما، فأغرقن أنفسهن في الماء هربًا من الحرمان.

وصلنا للحظة المرتقبة، ونظر كل منا للآخر منتظرًا أن يضرب بحجره المسنن اللمسة الأخيرة فيتهاوى التراب ساقطًا ونصعد

نحن، تراجعت قليلًا مفسحًا المكان لـ"زين"، فنظر إليّ شاكرًا ومال على التراب فتيمم به ونصب ظهره، وتلا شيئًا في سره، وقبَّل حجره المسنن وطرق باب الأرض طرقًا خفيفًا لكنه مؤلم فتفتت القشرة الرقيقة وذابت تحت تأثير الضربة الهينة ونزل ترابها على رأسينا سلامًا، وانفتح باب ضوء مشع أصاب أعيننا الواهنة فأغمضناها مجبرين ثم فتحناها قليلًا، وكانت الجميلات أمامنا ينتظرن.

هدأ الغبار، وأصبح وجه "زين" معفرًا إلا من ابتسامة اتسعت لتملك وجهه، نرفع وجهينا فنبصر آيات الله الجميلات ما بين الدهشة والفرحة، يقفن في دائرة غير مكتملة، يضئن المكان وعيونهن تتفحصنا بهدوء، وابتساماتهن تمد لنا حبل الصعود من النفق، كن كثيرات لا آخر لهن، و"زين" أصبح رجلًا عجوزًا وأنا لم أر وجهي وربما أصبحت عجوزًا مثله، كنا في النفق ممددين عبرنا برأسينا من أسفل الجدار الجيري، لكن جسدينا لا يزالان أسفله لم يمرّا بعد، وبدأنا الحبو كي نمرّ، ومدت واحدة يدها ثم مدت الكثيرات وارتسم على وجوههن الرعب عندما اهتز الجدار.

النساء من الجانب الآخر لم تخفت إضاءتهن حتى الآن، والجدار الذي أعلن غضبه؛ لأننا كشفنا أساسه استقر على ظهرينا وصنع دائرة من الضجيج والغبار، أنا لم أشعر بألم ولم أشعر بجسدي، عجزي عن مواصلة الحبو يقتلني، وعينا زين معلقتان بالنساء الواقفات، تمنيت لو اقتربت واحدة وأمسكت يده، لكنه ظل وحيدًا يتمنى، ما زلت قادرًا على الكلام المتقطع فناديت باسمه، لكنه كان مأخوذًا بجميلاته فلم يرد.

كان فمي يسف تراب الأرض، وواحدة بوجه "سنجابي" جلست على حافة النفق، ثم اقتربت ووضعت يدها على رأسي فمرت ذكرى قطار كان يميل على أحد جانبيه قبل أن يتوقف، وصوت مؤذن مشروخ من لسعة البرد يعاكس هدوء الليل، وبنت تجلس على مقعد خشبي بعيد تضع وجهها في زجاج النافذة المغلق تهرب من النور الشاحب للظلام الخارجي، مسّدت رأسي، وقالت عيناها: رأيتك من قبل.

كنت أريد أن أسمع صوت "زين" قبل أن يحلّ الظلام، ناديت عليه لكنه صامت تمامًا، وشعرت بالبرد، وعادت النساء لحكايتهن الهامسة وضحكهن الشجي، بيني وبينهن ستار لا أبصره لكنني أحس به، أسمع همسهن غير الواضح، بينما شهوة تأكل رأسي ويدي العاجزة تفتش عن سبيل.

فلا حسٌ يسمع ولا شخصٌ يرى

"زين".. طوال الوقت أمر بجانب الجدار المنهار فأجد ركامًا ما زال غباره يتصاعد فلا يظهر خلفه شيء، وأسمع تنفسك أسفل حجارته، لكنهم يمنعونني من الحفر، يقولون: "ممنوع"، لكن أقول لك: "أنت محظوظ لأنك لم تسقط مثلي في الجحيم".

**

أمامي، الآن، ثلاثة رجال وامرأة واحدة، نعم.. الرجال يملأون السراديب لكن المرأة لا أعرف من أين أتت؟ وكيف احتمل التراب الناعم خفة جسدها عندما مرت عليه ولم تترك أثرًا عميقًا به؟ كنت أراقب طوال الوقت انطباع قدميها على الأرض وأقارنه بالآخرين الذين يحفرون آبارًا بأقدامهم إذا مروا، لم تكن جميلة ولا قبيحة، أعتقد أنها مرت من الجدار المنهار الذي سقط، وأنها كانت وسط حشد النساء اللواتي كن ينتظرن مجيء زين لكنها بالتأكيد كانت صامتة لم تضحك معهن ولم تمد يدها لمحاولة إنقاذنا، لكن إحساسي بأنني أعرفها كان ينمو داخلي.

**

"إياك أن تغضبها" بهذه الجملة همس في أذني أحد رجالها، وهم يجرون جسدي الذي لا أحس به من تحت بقايا الجدار، بينما جلست هي تأكل شيئًا ما، ألقوني أمامها بوجه معفر بالتراب، لا أقوى حتى على النظر إلى وجهها، فنظرتُ إلى يديها الملطختين بالرمل والتراب الناعم، قالت:

- دائما تنكر فضلي عليك.. وها أنا أنقذتك من تحت الجدار.

طلسم جديد يضاف لما أنا فيه، أردت أن أقول لها في جدة ممزوجة برائحة الدم التي تخرج من فمي: "لا أريد فضلًا من أحد، ولم أطلب أن يخرجني أحد من تحت الركام"، لكنني نظرت في عينيها فارتجفت.

ظلت فترة طويلة بعدها لم تسألني عن شيء، كأنها لا تراني، وأنا مشغول بتفاصيل وجهها الذي أعرفه جيدًا، أنا أنبش في ذاكرتي وهي تفكر مع رجالها وترسم على الرمل الناعم خطة لشيء ما، لكنني لم أتوقع أبدًا أن تفكر تلك المجنونة في اختطاف طفلة، وهنا نظرت ناحيتي وأشارت أن أقترب فاقتربت.

**

يمرّ الناس من حولي ولا يلتفتون، يسيرون هائمين في مشيهم يذهبون ويجيئون بلا وعي، حتى أن جدارًا سقط وانهار فوق رجلين ولم ينتبه أحدٌ، وامرأة غريبة تجلس بينهم ولا رجل يهتم، وأفكار تلوث الهواء وليس هناك سبيل لتفاديها، والمرأة تعطى ظهرها للحائط ورجالها ينصتون إليها في أدب، وأنا أُصدِّر لها اللا مبالاة كأن أمرها لا يعنيني، حتى قالت:

- وفاضل يهدئ الطفلة بالحكايات.

فصرخت:

- لست معكم.

فلم ترد عليَّ.

كانت الخطة أن يتسلل الرجال إلى أحد السراديب بعد أن يبيع لهم الحارس نفسه وهم يشترونها منه بثمن بخس، ويبتعد عن المدخل لحظات، وأنا لا علاقة لي بما يحدث في الداخل،

لكن عندما يخرجون بالطفلة يبدأ دوري، كان علىّ أن أجعلها تنسى سردابها للحظات، هذه اللحظات كافية ليتغير عالمها بعد ذلك.

**

أن تلمس يد طفلة، حتمًا، ستنبت في كفك حياة كاملة، وستشعر كأن مسًّا أصابك وبدَّل روحك وأعاد تشكيلك من جديد، وأسقط من قلبك الصدأ ومن روحك العطن، ومنحك الرغبة الكاملة لتحمّل العبث الذي وقعت فيه.

قبل ذهابنا لاختطاف الطفلة، سألتني المرأة: ما الذي ستحكيه لها، ولما صمت، قالت: هل تعرف حكاية طفل وأمه، الطفل عيناه غائرتان بعض الشيء، تشبهان عيني الأم تمامًا، كانا يسيران ذات مرة هي تمسك يده ليتجاوزا معًا حفرة في الطريق، وهو لا يتوقف عن الدوران حول الأم والضحك، هي على وجهها خوف، ومتوترة لدرجة أنها لا تسمع شيئًا مما يقوله، وهو يتكلم كثيرًا وترد هي بجملة واحدة: "لو وجدت أختك سأفعل لك ما تريد"، لكنها لم تجد أخته أبدًا، وظلت وحيدة في عنبر مستشفى بائس شهورًا طويلةً جدًا؟.. فأصابني القلق من قولها.

بهدوء غريب تواصل المرأة كشف ما في داخلها: "هل تعرف حكاية طفل وأبيه، يتشابهان في الذقن وشحوب الوجه، الأب صامت بينما خيط من الدمع يسيل من عينيه، والطفل لن يلتقي أمه ثانية إلا ليرتكب كارثة مروعة"، فانتفض قلبي بفزع.

حكايات المرأة تدق في رأسي فتجعلني أسقط في بئر سحيقة بالكاد أرى صورًا باهتة لما تقوله، لكنه قوي كأنه حدث منذ لحظات.

بعد خروج الرجال بالطفلة تركوها لي، ملامحها هادئة لا تحمل انزعاجًا ولم تدمع عيناها أو تتلفت للوراء، وشعرت بأن ما أقوم به سخف، فلا الطفلة تحتاجني في شيء ولا أنا أعرف ما الذي حدث داخل سردابها الذي خُطفت منه، وعندما دخلنا على المرأة المجنونة، كانت تجيء وتروح فى المكان لا تستقر على شيء، فلما رأتنا، احتضنت الطفلة وقبلتها وشمت شعرها وأجلستها بجانبها وقالت:

- لا تقل عني أني مجنونة.

في جرأة نظرت إليها:

- لا أعرف لك اسمًا غيره والجميع ينادونك به.

تأملتني:

- كانت هذه الكلمة تؤذيك من قبل، ما الذي حدث لك؟

**

أي صدى يتردد الآن مرتبطًا بالجنون، ملامح المرأة تروح وتجيء في ذهني، تذكرتها كانت دائمة البكاء، لم تؤذ طفلها أبدًا، لكنها ظلت سنة كاملة وهو في الخامسة من عمره تجعله يلبس ثياب بنت توقِّف عمرها عند سن الخامسة، وتركت شعره يسترسل ورفضت محاولات أبيه لقص شعره، لكن عندما عقصت له ضفيرتين، صرخ أبوه:

- الجنون سوف يُضيَع الولد أيضًا، كل الناس تضيع بناتهم، لكن لا يفعلون مثلك، يا مجنونة.

لكنها أبدًا لم تكن مجنونة، فقط بدون أن ترد أتت بسكين وقطعت شريانها وسال دمها على رأس الطفل وضفيرتيه وبكت.

اختفت الطفلة لا أعرف أين ذهبت؟ وأنا لم أعد قادرًا على التمييز، هل أكره المرأة التي أمامي أم أتمنى لمس يدها وأن تضمني فأبكي على صدرها، عندما تحدثتُ مع أحد الرجال الموجودين أنكر أننا اختطفنا طفلةً أصلًا، والمرأة كانت ترصدني بعينيها تعرف أن سؤالًا كبيرًا يزعجني، وفي النهاية تجرأت ووقفت أمامها كانت تأكل شيئًا ما، سألتها عن الطفلة فبكت: "بحثت عنها طوال عمري ولم أجدها"، صرخت: "كانت معك فأين اختفت" فناحت: "أخذوها مني لا أعلم كيف؟" كان رجالها غائبين، وخلفها باب سرداب آخر لم أره من قبل كأنه نبت فجأة، مددت يدي إليه فقالت:

- احذر.

ولم أفعل، دخلت السرداب وهي لم تقاومني.

**

من ألف سنة لم يتحرك هذا الباب من مكانه، صريره مزعج مثل بكاء طفل، انزاح تحت ضغطي كاسحًا كومةً من التراب في طريقه، لكن صوته وترابه الراكد القديم لم يشغلاني كثيرًا. عند دخولي السرداب كانت البنت التي اشتركت في خطفها واقفةً كأنها تنتظرني، فأمسكت يدها، وسألت نفسي:

- هل لمحت ابتسامة ما؟

أصبحت أخشى الابتسامات وأصحابها، لم أشأ أن أتابع الدخول للسرداب، سآخذ الطفلة ونخرج، لكنني أخطأت ونظرتُ خلف ظهرها، كانت هناك بنتٌ أخرى تقف خلفها تشبهها تمامًا بل هما متطابقتان، وخلفهما فتاة أخرى وأخرى إلى مالا نهاية، كن جميعًا صورة واحدة من الطفلة الأولى التي

تنبهت الآن إلى أن لون عينيها يشبه لون عيني المرأة الموجودة خارج السرداب، وتشبه لون عيني، وتدافعت الصور في رأسي، إنها أمي، لا تزال تبحث عن ابنتها الضائعة، بعمرها الذي لا يتجاوز الخمس سنوات كأنها سقطت من صورة قديمة احتفظت بها طوال عمرها تمسكها وتبكي وتضعها على مائدة الطعام وتبكى وتنام، وهى تحتضنها، وتترك طفلها الصغير خلف ظهرها وحيدًا يعتقد أن المصباح المضيء هو أمه لكنه يسمع صوت البكاء فيغمض عينيه متمنيًا التفاتة تتبعها قبلةٌ مبللةٌ بالدمع.

**

تراجعت للخلف محاولًا العودة ومغادرة السرداب المسكون بالمتشابهات، وأن أرى أمي فأسامحها وتسامحني، لكن لا وجود للباب، اختفى تمامًا، وحل بدلًا منه جدارٌ صلدٌ بلا روح، ومن بعيد أبصرت الجنون مثل نقطة سوداء قادمة تأكل البنات الصغيرات وتسعى إليَّ، وشعرت بالدمع الساخن لأمي عندما قبلتها آخر مرة قبل قتلها.

ثم أقبلت الوحوش من البراري

- كيف تركت جدتك، ألا تزال تغضب مثل عاصفة؟

بالطبع أتذكر جدتي، أنا هنا في السراديب منذ زمن طويل لا أعرفه تحديدًا، لكنني لا أذكر وجودي خارجها إلا طيفًا يمر أمامي، أتذكرني خائفًا قلقًا من كل شيء، لكن التفاصيل الصغيرة ذهبت، وكلما تذكرت شيئًا منها استغربت من تصرفاتي القديمة غير المفهومة، وأحيانًا أراني خارج السراديب في طرق واسعة وأخرى ضيقة على أطراف مدينة لا تختلف عن القرية في شيء، فالشمس تزورها أيضًا، وإن كانت أقل حرارة، وأجدني صامتًا على مائدة طعام داخل غرفة متوسطة ومعي رجل يأكل وعلى وجهه استقر الحزن غير مكترث بفقدان شهيتنا للطعام.

وأتذكر على أحد جدران الغرفة صورة لامرأة تحمل طفلًا رضيعًا لا يعرف أين يلقي عينيه، بينما على ساقها الأخرى بنت تكبُر الولد بسنوات وتعرف كيف تكون قريبة من قلب الأم، ولديها ابتسامة متسعة تحوى وجهها كله.

تعود أفكاري للسراديب فأتذكر الرجل المزروع في خندقه، فهو الوحيد الذي تلح صورته عليّ كثيرًا منذ قابلته، وكلما فكرت في شيء كان موجودًا يتحدث أو يجلس صامتًا ينظر ناحيتي في ترقب، وأتذكر أسئلتي الكثيرة حوله: من هو، وما اسمه، وكيف يعرف كل شيء عنا، وما قصته الكاملة؟ لكن تظل جدتي أول الحاضرين في روحي برضاها وغضبها، كأنها لم تفارقني أصلًا.

توقفت عن الثرثرة وسألت الرجل: من أنت لتسألني عن جدتي؟

ابتسم الرجل العجوز الذي يسير بجانبي، ويعقد ذراعيه خلف ظهره ويحنى قامته قليلًا:

- أنا جدك حمدون جئت لإنقاذك مما أنت فيه.

فكرت، وأنا في حالة من الانتشاء: جدي، لم أقابله من قبل، ولا أعرف له طيفًا، ولم يمر بذاكرتي إلا مرتبطًا بإثارة الخوف.

نسير متجاورين مغادرين سردابًا سقطت فيه، فبعد أن اقترب مني الجنون الذي كان يشبه نقطة سوداء تتسع، ظهر الباب مرة ثانية وجاء معه الرجل العجوز الطويل الذي يقول الآن إنه جدي وأمسك بيدي، وها نحن نسير أو بالضبط هو يقودني، وأنا في البداية أصبحت ثرثارًا أحكي كل ما أتذكره، وأقول أشياء كثيرة متداخلة نسيتها فور أن أخبرته بها، نعم طويلة هي الطريق التي نسلكها الآن كأنني مررت بها من قبل.

ملامحه حادة وقاطعة، لكنه يحاول أن يكون بسيطًا معي وضع يده على كتفي وقال:

- نحن معًا، طريقنا واحدة ونهايتنا واحدة.

**

السراديب مقفرة لا ترى فيها سوى جدران متهالكة كالحة مائلة أو متهاوية، ورمال ناعمة صفراء قبيحة، وإذا ما سقطت في السراديب الخلفية فهي مظلمة وكئيبة وسوداء القلب، هذا ما كنت أظنه طوال الوقت حتى انعطف بي الرجل الذي يدعي أنه جدي حمدون في طريق جانبي فأصبحنا أمام قصر كبير كأنه ظهر من العدم، وسمعت صوت الماء فارتعبت.

كيف ينبت اللون الأخضر هنا؟ ومن أين تأتي هذه الرائحة الطيبة التي تملأ المكان؟ قال جدي: الأرض كلها مزروعة بالحلفا، فاستغربت جدًا: "الحلفا ليست طيبة الرائحة ولا أحد يزرعها بل تنبت وحدها"، فلم يجبْ، كان الشوك الناعم يملأني بالشهوة، أريد أن ألمس النبات وأن تمر يدي عليه.

مساحات الحلفا تمتد مثل حقل قمح لا آخر له، وكان وجه جدي يتغير لونه كلما مرّرت يدي، لكنه لم يصرفني كأنني طفل يرى الشمس صبية تلعب معه، وتنبهت للمعجزة، فالشمس تملأ الأرض، وصرخت:

- أنا الآن خارج السراديب.

مددت جسدي الشاحب للضوء أريد أن أتشربه، تركني جدي أعدو في حقل الحلفا، وقد أضاء عقلي بفكرة أن الشمس لم تعد قادرة على إيذاء جسدي كما كانت تفعل قديمًا، حاولت أن أتذكر علاقتي بالشمس، وعلى استحياء تذكرتني أجلس أمام محطة قطار أتناول أدويتي وأحاذر أن تسقط أشعة الشمس عليَّ، وفي قاع الذاكرة كان طفلٌ تعاكسه الشمس وكلما جلس في ظلٍ سعت خلفه، فيهتف من الفرح: الشمس تحبني.

منذ وصولنا المكان، يؤكد جدي أن آخرين يسكنون معه، لكنني لم أشاهد أحدًا منهم، ربما يختبئون عند رؤيتي، وتساءلت:

- ما الذي سأفعله هنا.

- سوف تعود لمتابعة الضوء، ألم تكن تفعل ذلك من قبل؟ هذه المرة ستحرس الشمس.

في الزمن الأول لم تكن الشمس واقعة في منطقة الضوء

المسئول عنها ولم تكن خارجة منها أيضًا، لم أكن مطالبًا بالخروج لمطاردتها، لكن هذه المرة أنا وهي وجه لوجه، أحرسها حتى لا تستسلم للضباب ولا تنطفئ حمرتها فلا تنضج الحلفا، وبينما أرتب حالي لمواجهة التغيرات التي أخشاها، رأيت طيفًا يجري على مسافة بعيدة من الحقل للبيت، المفاجأة أنه لم يكن يرتدي كفنًا واتضحت ملامحه فجأة أمامي كان "زين"، ومن الشباك الصغير أطل عليّ وجه الرجل المزروع في خندقه، وانفتح الباب فجأة وخرجت منه مجموعة نساء تولولن بأصواتهن المجروحة، ورأيت جدي حمدون يزداد طولًا، وارتفعت حرارة الشمس، وعرفت أن ضربتها أصابتني وأنها ترفض أن أكون حارسها.

كنت محمولًا دون أن أرى من يحملني، أسمع همهمات حولي، بعضها يتمنى لي العبور من هذه المحنة، وبعضها لا يفعل، وللمرة الأولى اقتربت من القصر الفخيم، ملقى على ظهري، وجدي ينظر إليّ من مكان مرتفع، كان الظل داخل القصر ناعمًا مثل حرير لمسته يدي، لم أدخل القصر فقد ألقوني أمام بابه المفتوح الذي يرسل النعيم من داخله، وجدي يتأملني خشيت أن يفكر في إعادتي مرة أخرى للسراديب المظلمة، فحاولت الاعتدال فلم أستطع، وابتسم هو قبل أن يمضي.

تأكل الشمس رأسي، وأنا ملقى أمام القصر الكبير، شفتاي المشققتان تنوحان ولا ماء يقرب فمي، لم يكلمني أحد من الذين رأيتهم يمرون جانبي ويتحدثون بما لا أفهمه، الشمس لا تغيب أبدًا، ولا تتحرك من مكانها، واقفةً لي بالمرصاد أدير وجهي بعيدًا عنها فأراها من الناحية الأخرى مسلطةً عليّ أيضًا.

ليست بي حاجة لحساب الأيام، فلا أيام هنا، هو يوم طويل حار جدًا ممتد بلا نهاية، فقدت الرغبة في أن يتنبه أحد إليَّ وبدأ القصر الكبير وكل ما يحيط به يذبل في مخيلتي وأمام ناظري، وفعلت ما لم أتخيله تمنيت العودة للسراديب الخلفية، حينها سمعت صوت جدي يهمس في أذني:

- لقد طابت الحلفا وأتت أكلها.

فى أي شيء جئت وفى أي شيء عدت، لا أعرف، أنا الآن على الطريق نفسها، القصر الكبير خلف ظهري، ووجهي للسراديب سائرًا إليها، كل ما أملكه حسرة في قلبي، فبعدما تساوت لديَّ الأشياء وانتظرت الذوبان في أشعة الشمس، حملني رجلان وطافا بي أرجاء القصر، كأنني في قصة خيالية، صعدا سلالم وهبطا أخرى، وأنا أشم رائحة الجمال، أحاول أن أمسك الظل وأن أقبض عليه بيدي، أن يشفي جروح الشمس التي أكلت جلدي، غرف كثيرة لا آخر لها، وصوت عصافير يأتي من كل مكان، وضحك نساء ينتشر بين طوابق القصر، لكن قبل أن يطمئن قلبي كنت على الطريق عائدًا للسراديب المظلمة، كأنه الحلم، أمشي وجدي حمدون يسير بجانبي، ظهره أكثر انحناء، ليست لي رغبة في الكلام لكنه يثرثر طوال الوقت، لم أنتبه لكلامه المتداخل، كنت أفكر: "نحن الضائعين في السراديب الخلفية نشم الأشياء الجميلة لكننا لا نرى سوى ابتسامة الموت"، قاطع أفكاري: "تفكر في الموت هل رأيت الموت من قبل"، واشتاط غضبًا وهو يزيح بقدمه جمجمة ملقاة على الطريق.

ولقد تمت فضيحتك

أجلسُ متكئًا على جدار، قدماي مضمومتان إليَّ، والناس يمرون من أمامي مسرعين في اتجاه واحد، همهمتهم خافتة يترنمون في صوت جنائزي خفيض ويحملون ملامح مختلفة ووجوه متغيرة ولمحة من الغضب تلفحهم جميعًا، كثيرون، بعضهم رأيته من قبل كانوا يجلسون في القاعات أو يمرون مع السائرين في السراديب، وأغلبهم يعبرون للمرة الأولى داخل ذاكرتي، لكنني لمحت شخصًا مختلفًا يسير بينهم، إنه "عابد" الذي كان يحرس الضوء لكن الحقد أخرجه مما كان فيه، لم أكن قابلته من قبل لكنني عرفته، يضع يده على قلبه المثقوب، فجأة تغير حالي من عدم المبالاة بما يحدث لرجل يركض خلف آخر يريد اللحاق به، شددته فالتفت إليّ مستنكرًا، فناديته:

- أنا أعرفك قلبك مثقوب وعيناك يسيل منهما الدم وعظامك ملتهبة .

تفحصني جيدًا ثم لان وجهه وجذبني من يدي وقال:

- أنا أيضًا أعرفك لقد غيرتك الحكايات كثيرًا.

وتحركنا في الطريق وسط الوفود السائرة للأمام.

**

في الطريق عرفت وجوهًا كثيرة، بعضها قابلته في رحلة قطار بائس قديم، كنا نحيي بعضنا بإيماءة خفيفة ونمضي، لكنني مشغول برجل الحكاية قلت له:

- عرفت أن اسمك عابد.

هز كتفيه كأنما يُسقط عنهما شيئًا غريبًا:

- كان اسمي "عابدين" لكنه لم يعجبهم هنا فجعلوه "عابد".

حاولت ألا أكون مندفعًا وأن أتروى بعض الشيء لكنني لم أستطع، سألته:

- هل قابلت علي عويس الذي ثقب قلبك.

كانت ابتسامة خفيفة على جانب فمه تقاوم الاتساع:

- تقصد صديقي علي عويس.

بدأت الناس السائرة حولنا تهتف بصوت عالٍ وتلوح بقبضاتها في الهواء مهددة شيئًا لم أره، وفي قلب الجموع كان صوت أنثوي يخترق الآذان يصرخ: "البحر عائد والأهل غائبون، البحر عائد والناس غارقون"، ورأى عابد أن نستريح على جانب الطريق بعض الوقت، ولمَّا أشرت إلى الناس المتدافعة هز رأسه:

- طريقهم معروفة وسوف نذهب إليهم.

السراديب التي نجلس فيها ليست معدة لجلوس أحد، لكننا جلسنا متجاورين، ولا يزال بعض المتأخرين عن المسيرة يعبرون مسرعين يكادون لا يلتفتون إلى رجلين يجلسان أسفل حائط متهدم، والصوت الأنثوي الهاتف بعودة البحر يروح ويجيء.

دون أن أسأل مرة أخرى بسط "عابد" كفه كأنما ينتظر أن يسقط مطر عليه، أو تقف فراشة على أطراف أصابعه وبدأ يحكي:

- بعد موت الرجل الفج، الذي لم يكن علي عويس بل كان

خضير حمدون، الذي أفزعته في الليل وراح يتخبط في القبور حتى مات على شاهد قبر لرجل اسمه سلمان سليط والدم ينزف من عينيه وأذنيه، سلكت طريق السائرين في السراديب، كان الندم يأكل روحي فأبكي وأسير على غير هدى أبحث عن شيء ما يُسكِّن الروح الهائجة، وتحولت ملامحي لملح من شدة ندمي، وذات مرة خفتت الأصوات فجأة من حولي وكأنني أسير وحدي، السائرون فارقوني فجأة أو أنا من فارقتهم، رأيتني في سرداب غريب أتلفت فيه خائفًا، ومن ورائي جاء رجل كان يحاول اللحاق بي ولما اقترب أراد أن يقبل يدي، وبعد شد وجذب عرفت أنه سلمان سليط يشكر لي ما فعلته، حدثني عن ثقب في قلبه يشبه ما بي، لكنه التأم الآن بعد أن مات قاتله خضير حمدون منكفئًا على قبره، وتحقق العدل عن طريقي، "سلمان" أيضًا لم يعرف لماذا قتله "خضير" لا يذكر سوى بندقية مصوبة ناحيته، وقاتله يهتف به "يا ابن الغريب"، ثم انطفأ كل شيء إلا من مخالب شرسة تفتش فيه عن بقايا روح رافضة أن تغادر، وآخر ما يذكره سلمان هو "غراب" بهيئته الكئيبة يحوم حوله، وآخر ما شعر به قطرة من العرق سقطت من الفراغ على شفته كانت مالحة ومرة مثل صبارَّة، تسربت لفمه المفتوح من الألم فشعر بمرارة في الحلق، وعندما أدرك أنها تخص ملاك الموت فزع وانتهى الأمر.

ويضيف "عابد":

بعد احتفاء "سلمان سليط" بي تبدل إحساسي بالندم، شعرت أنني يد الله في تحقيق عدله، وفكرت في أن علي عويس قاتلي هو أيضًا، بالتأكيد، وجد نصيبه من العدل، وأن دم قلبه

سال على جلبابه، وأن النار اشتعلت في عظامه، وأنه بالتأكيد في لحظة موته بحث ولم يجد سببًا كافيًا لموته، وأنه تذكرني قبل أن تفارقه روحه وأدرك أنني وراء قتله حتى لو لم يرني، وأنه طلب مني أن أسامحه، لكنني لم أسمعه لأنني كنت بعيدًا جدًا ولا أعرف مكانه ولا حتى شخصه، ولم أكن لأسامحه، أو ربما كنت أفعل، لا أدري الآن، المهم ذهب الندم بعيدًا وأصبحت أسمي علي عويس صاحبي، فكرت في كل ذلك وبدأت البحث عنه، فتشت كل السراديب لكنني لم أجده حتى الآن، طلبت المرور للسراديب الخلفية خادمًا للمطرودين والساقطين في محنة الغضب، المهم أن أكون قريبًا من علي عويس، هذا قبل اكتشاف الكارثة، هم يغيرون بعض الأسماء التي لا تعجبهم هنا، كان اسمي "عابدين" فجعلوه "عابد" وربما غيروا اسم علي عويس، وها أنا خارج أهتف بعودة اسمي وعودة كل أسماء الناس حتى أستطيع أن ألتقي بعلي عويس.

وبينما نمشي متجاورين أشار "عابد" للوفود التي بدأت تلوح أمامنا مرة أخرى وصاح: "كل هؤلاء الناس السائرين حولك ضاع منهم شيء وخرجوا يبحثون عنه"، ثم التفت إليَّ في حدة قائلًا:

- أنت ألم يضع منك شيء؟! حتمًا غيروا اسمك مثلما فعلوا معي، كان السؤال مفاجئًا، لكنه شغلني عن الجموع المتزايدة، ما الذي ضاع مني؟ بالطبع ليس هذا هو السؤال الصحيح، كان على عابد أن يسألني عما تبقى مني؟ أنا واثق أنهم لم يغيروا اسمي فلا يزال صداه يتردد في داخلي في كل الحكايات التي ترد داخلي، لكن هناك أشياء أخرى فسدت أحس بها ولا أستطيع أن أقبض عليها.

كانت الوفود تتحرك ناحية طريق يتسع حتى بدت الأعداد رغم تدفقها قليلة متناثرة في أنحاء المكان، نظر "عابد" حوله وتنهد:

- وصلنا.

لم أر سوى اتساع لا آخر له وبلا ملامح غير الانخفاض الواضح والمتدرج للأرض، ولما بدت الحيرة عليّ، أضاف:

- لقد وصلنا البحر.

كل الذين وصلوا قبلنا بدأوا في نصب خيامهم واستقروا خارجها، لا أزال منذ أخبرني "عابد" أن كلَّ الناس الموجودة هنا تبحث عن شيء ضاع منها، وأنا أفكر في الأشياء التي ضاعت مني، فكل حكاياتي عن نفسي مثقوبة سقطت منها تفاصيل مهمة، واسم خضير حمدون القاتل المقتول أصابني برجفة، في داخلي حكايات مرتبطة به تتضح أحيانًا وتغيم أحيانًا، لكن صورته تتشكل في ذهني وهو يرتدي ملابس نساء وشاربه المتدلي على شفتيه يصنع صورة مضحكة قبل أن يسدل البرقع على وجهه، بينما امرأتان غريبتان تخفيانه وسطهما، ومن النافذة المفتوحة دائمًا بسبب شجرة الفيكس التى تمنع إغلاقها، قاومت التعب والمرض ورأيت الثلاثة يخرجن من البوابة الخلفية متسللات عبر غيطان الذرة ثم يركبن طريق الحلفا ناحية الجبانات.

لم أشأ أن أقول لـ"عابد" أنني أعرف "خضير" وأنه عمي، ومع ذلك فكرت: "ألا يخشى لقاءه هنا"؛ حيث يلتقي الجميع، لكنني سألته:

- أين ذهب سلمان سليط بعد ذلك؟، ارتبك:

- لم أره مرة أخرى، تبخر من أمامي، يبدو أنني كنت أحلم.

المكان الذي بدا عشوائيًا في أول اليوم دبَّ النظام فيه مع الوقت، فمن الواضح أنها ليست المرة الأولى لهم، واخترقتني جملة "ولن تكون الأخيرة"، كان "هاشم" حارس الضوء الأول وصاحب الحكايات يجر ساقه غاضبًا ويتحرك بعصبية، سألني عن "عابد" وعن امرأة تقص الحكايات وتخبر الجميع بأن بيت أبيها كان هنا في هذا المكان، وتحكي للناس أن المكان الذي ينصبون فيه خيامهم كان بحرًا وتبخر بسبب سمكة ملعونة تنبأت بذلك، وعليهم أن يفروا فالماء سيعود مرة أخرى ويغرق كل شيء، لم أر المرأة لكنني تذكرت الصوت المفزع الذي كان يصرخ في الناس "البحر عائد والناس غارقون.. البحر عائد والأهل غائبون"، وتذكرت حكايتها ومأساة هاشم معها وأزمتها عندما التفتت وراءها بينما كانت تفر خلف الفارس المقنع، وتنبهت الآن للحروف المتلعثمة لـ"هاشم"، وبحثت بعيني عن الفتاة فلم أجدها، كان "عابد" يقف بعيدًا مع رجل أحمر الشعر يعصِّب رأسه بخرقة حمراء وله يدان طويلتان تصطدمان بالأشياء حوله، وفي النهاية هز الرجل رأسه موافقًا، فرفع "عابد" رأسه يبحث عني حتى التقت أعيننا فأشار إليَّ، تحركنا ناحيته، لم يرتح عندما وجد "هاشم" مرافقًا لي لكنه تنحى جانبًا وتركه يمر، قلت له: "يبحث عنك" قال: "دعه يبحث لن يجد شيئًا"، نظر إليه هاشم بطرف عينه ثم دخل الخيمة التي تركها الرجل أحمر الشعر وتمدد في طرفها وراح في النوم.

دون أن يبدو عليه الاهتمام سألني "عابد":

- هل عرفت الشيء الضائع منك؟

رغم حالي لكنني لم أتوقف للبحث عن سبب ما حدث لي بالمعنى الدقيق، ولم أفهم شيئًا من الوضع العام الذي يحيط بي، نعم أسئلتي كثيرة بلا أجوبة، لكن سؤاله جعلني أفكر بسرعة: "أريد أن أعرف لماذا ألقوا بي في السراديب الخلفية أعاني الظلمة والخوف؟"

فأجابني دون تفكير، كأنما كان ينتظر سؤالي:

- لأنك خائن.

ملامحه لا تكشف أي شعور بالندم، على ما قاله، وليس هناك سوى رغبته في شرح الأمر، بعد أن لاحظ البله الذي حط على ملامحي، ما زلت منذ اليوم المشهود الذي بدأ وانتهى في قاعة الاجتماعات وخرجت منه مقيدًا للعالم السفلي، لا أعرف سببًا واحدًا لما حدث، ورغم المرارة التي شعرت بها من اتهامه لي بالخيانة انتظرت أن يفسر لي، قال:

- هل تذكر الشروط التي أخذها عليك الرجل المزروع في خندقه، عندما قص عليك الثلاث حكايات؟

هززت رأسي بالنفي، فأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يضيف:

- "كنت حينها أمر بين السائرين فى السراديب، ورأيتك جالسًا أمام قاعة الاجتماعات تعتصر عينيك بحثًا عن الدمع الهارب، وعرفت أنك ستصبح مسئولًا عن الضوء يعني ستكون فريسة للمهالك، فانفصلت عن جيش السائرين وتتبعتك، رأيتك تسير عكس الناس حتى وصلت للرجل المزروع في خندقه، وقفت غير بعيد أتنصت للحكايات الثلاث، وأستمع له وهو يسلبك روحك، كانت شروطه الثلاثة التي وافقت عليها دون تفكير هي أن تمنحه روحك وسمعك وقلبك وأنت فعلتها ووافقت،

ومعظم الموجودين في السراديب الخلفية، كانت لهم تجربة تشبه ما حدث لك، عن نفسي منحتهم له نظير أن يأخذ ندمي، وعندما أتهمك بالخيانة لا أقصد أنك خائن بالمعنى الحقيقي لكن هذه هي التهمة التى وجهها لك السيد وجنوده و.."

وقاطعته:

- ما الذي تعرفه عن الرجل المزروع فى خندقه؟، وكيف يعرف كل الأشياء؟.

كانت ابتسامة حزينة تمر على ملامح "عابد" وهو يقول:

- لا نعرف عن هذا الرجل سوى أنه هنا منذ ألف سنة، وأنه كان سيد السراديب، لكنه اعترض على شيء ما فأصبح حارسًا للسراديب الخلفية، وكان جسده صحيحًا لكن مع الزمن تآكلت أطرافه وصار كما ترى.

سألته:

- وما اسمه الحقيقي؟

ظل سؤالي عالقًا في الفراغ لأن "عابد" قطع حديثه:

- العاهرة صاحبة الأعرج تثير الذعر في الناس تقول بأن الماء قادم وسيغرق كل شيء.

تنبه "هاشم" من نومه فزعًا يتساءل:

- "هل ظهرت؟.. أين هي؟

وخرج يجري وسط الحشود التي غطى لغطها على الحديث داخل الخيمة، وأنا ازددت ارتباكًا.

لـم أذكـر أني منحـت الرجـل الكئيـب المـزروع في قـبره الـذي التقيتـه في غـرف الكحـل المعتمـة شـيئًا، فقـط أذكـر كلمتـه لي: "سـأحكي لـك حكايـات مـن سـبقوك في خدمـة الضـوء لكـن بـشروط" وانطمـس الأمـر في ذاكـرتي و... وحـدث الهـرج والمـرج خـارج الخيمـة، وأخرجـت رأسي لأنظـر كان الغبـار يتصاعـد، والنـاس أصابهـم الفـزع، يهربـون في كل الاتجاهـات فيصطدمـون ويسـقطون أسـفل الأقـدام، ويعـبر القـادرون فـوق الأجسـاد المتسـاقطة، يصرخـون وينوحـون ومـن بعيـد كان صـوت المـاء الهـادر يصـم الآذان والزبـد المتصاعـد يـأكل كل شيء، والمـاء الأسـود عندمـا اصطـدم بي لـم يكـن ناعمًـا، ولـم أر وجـه أمـي عـلى موجاتـه المتكـسرة، كان صوتًـا زاعقًـا لـ"هاشـم" يـصرخ:

- صدقت النبية.

واكتشـفت أن قدمـي مربوطـة بعمـود الخيمـة، وجثـث الغارقـين تمـر أمـام عيـني المفتوحتـين، ورأيـت سـلمان سـليط ممسـكًا بعنـق عمـي القاتـل "خضـير" يحـاول أن يخنقـه تحـت المـاء، ورجـلًا يتصاعـد مـن عينـه الدخـان يفـر مسرعًـا معتمـدًا عـلى قـوة التيـار، بينمـا "عابـد" يعافـر للحـاق بـه ويـصرخ "لـن أتـرك ثـأري يـا عـلي عويـس".

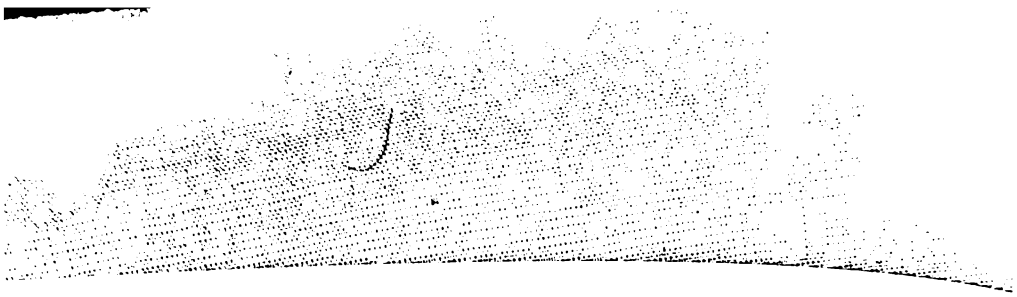

سرداب الوهم

سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم

لم أغرق، وجدت نفسي قادرًا على الحركة، نجوت، لم أهتم بالبحث عن أي من الرجال الذين أخذهم الماء، عدوت هاربًا دون معرفة الطريق التي أسلكها، لم أتوقف، لكنني تنبهت إلى أن ذاكرتي واعية تمامًا لكل ما حدث ولغرابته.

لا يزال عالقًا في ذهني منظر الجميع يتحدثون ويطاردون بعضهم تحت الماء، وعندما فتحت عينيَّ لم أجد أحدًا، وجدت أثر البحر باقيًا، ظللت ملقى على رمل شاطئه وبقايا أمواجه تتكسر تحت قدمي، وفي النهاية عدوت بعيدًا.

كانت السراديب خالية، أو هكذا بدت لي، امرأة وحيدة مرت أمامي وعندما رأتني فرت إلى أحد السراديب الجانبية، وأنا لم أهتم، ولم أسأل نفسي من أين أتت، تعبت من الأسئلة الكثيرة التي لا تنتج سوى أسئلة جديدة بلا إجابات وبلا طائل.

عن يميني كان السرداب الأكثر ظلمة يدعوني لأدخله فدخلت، الجميع حاضرون في ساحة كبيرة، لم أتوقع عددهم الكبير المتزاحم، وعندما وصلت ردد صوت يأتي من أكثر الدوائر ظلمة في المكان بارتياح: "الآن يمكن أن نبدأ الاجتماع".

**

جلست حيث انتهى بي المكان، وجوه بدت متشابهة، إنها النظرة الأولى، لكن بقليل من الوقت ظهر الاختلاف واضحًا، بل هناك ما هو أقسى من الاختلاف، هناك التعصب والنظرات المستعرة الممتلئة بالشرر المتطاير.

اجتماع

اليوم/ أحد أيام الله

التاريخ/ مرحلة واحدة قبل الوصول

الزمان/ الوقت غادرنا منذ قديم

المكان/ سرداب تائه

جدول الأعمال:

- عرض الموقف العام خارج السراديب الخلفية.

- البحث عن حل للخروج من التيه.

- تحديد نقطة الصفر لبدء العمل.

- تشكيل مجلس جديد لإدارة السراديب.

محضر الجلسة:

اجتمع المشردون والضائعون والمظلومون في السراديب الخلفية في محاولة منهم لتغيير حالهم والتخلص من موقفهم الصعب الذي يزداد سوءًا، باحثين عن طريقة مؤكدة للنجاة، ونحن لسنا في حاجة لاعتبار هذا الاجتماع قانونيًا، مع أنه كذلك، فمن يظنون أنفسهم أسيادنا لم يمنحونا حقنا في أي شيء، ولأن البعض حضروا إلى السراديب الخلفية لا يعرفون جريمتهم، وتلقفتهم الظلمة دون أن يشرح لهم سبب الحكم بتعذيبهم ونفيهم، كما وجب علينا أن نتغاضى عن حالتنا النفسية السيئة تجاه بعضنا وأن نتحد ونصبح يدًا واحدة للخروج من هذا الضيق، وأن نأخذ أماكننا التي نستحقها في قلب السراديب، وعليه لنبدأ الاجتماع:

البند الأول:

خارج السراديب الخلفية لا يزال الجميع متناسين ما فعلوه بكم من ظلم، وعندما تأتي سيرة أحدكم "يتفل" الواحد منهم على جانبيه وفي داخل كفنه، ويطلب من الآخرين غلق هذه السيرة العقيمة التي لا تجلب سوى النحس وتورد المهالك، لقد تحولت صورتكم هناك إلى مسوخ وحيوانات ليلية تهيم على وجوهها تعاشر الهوام وتنكح أنفسها.

لم ينسوكم ولم يذكروكم أيضًا، أصبحتم مجرد عابرين مروا من هناك، وهم لا يزالون يروحون ويجيئون يجلسون في الساحات في شبه دوائر، من يراهم يظن أنهم في حلقات ذكر، لكنهم في الحقيقة في حلقات نميمة ومكر، يظنون كل جديد قادم سيأخذ كفنهم ويتركهم عرايا، لذا يكرهونه ويفكرون في التخلص منه، كما فعلوا معكم.

السائرون فى السراديب جواسيس لصالح سيدهم، يطوفون مثل نور منسكب للأمام، لكنهم في الحقيقة نار تحرق أرواح الآخرين، في نهاية مطافهم الذي يبدو لكم لا ينتهي، كان الواحد فيهم يقدم تقريره ولا يفكر في جرائره أو يفكر وحينها تسكن شفتيه ابتسامة تشفٍّ قاتلة مع أنه على المستوى الشخصي لا يعرف الشخص الذي قدم عنه التقارير ولم يقتتلا يومًا ولم يسرق أحدهما الآخر أو يشعل النار في كفنه، وحتى تصدقوا ما نقوله ولا نكون مثلهم نطلق كلامًا في الفراغ سنقرأ عليكم أحد هذه التقارير وهو يخص أحدكم ومن المتواجدين هنا الآن استطعنا أن نحصل عليه من "قاعة التقارير":

"اسمه فاضل تعرض من قبل لظروف أنتم أدرى بها منا، ذات

يـوم جـاءت الأوامـر بمراقبتـه وتقديـم تقريـرٍ وافٍ عنـه، قلتـم خـذوا وقتكـم، المهـم أن يـأتي التقريـر ملمًّـا بـكل التفاصيـل، في البدايـة كانـت حركتـه ضعيفـة جـدًا، متكاسـلًا، يخـشى كل الأشياء الـتي يراهـا، لا يسـمح لقدميـه بـأن تقـوداه لأماكـن بعيـدة، دخـل معنـا في سـلك السـائرين في السراديـب لكنـه لـم يكمـل مـا بـدأه، فجـأة قـرر أن يتحـول للناحيـة الأخـرى، فسـار عكـس مـا نسـير، ومـن هنـا بـدأت حكايتـه.

قبـل أن ينضـم للسـائرين كان قـد تـم اختيـاره ليكـون مسـئولًا عـن الضـوء، وهـو مـا فجـر في داخلـه الكثـير مـن الخـوف وجعـل إحساسـه بالضيـاع يـزداد، لـذا صـار فريسـة سـهلة للأعـداء، اسـتطاعوا أن يصلـوا إليـه بسـهولة، لأن رائحـة خوفـه كانـت تـدل عليـه.

وضـع المتربصـون كثـيرًا مـن الفخـاخ في طريقـه فرسـموا لـه عـلى الجـدر المتهالكـة رسـمة لطفـل يبـكى وأب يشـعر بالنـدم ذكرتـه بمـاضٍ لـه، المهـم أنهـم اسـتطاعوا أن يصطـادوه في النهايـة، إذ وجـد نفسـه وجهًـا لوجـه في مقابلـة مع الرجـل المـزروع في خندقه، وبكلمـات قليلـة بـاع روحـه وسـمعه وقلبـه في مقابـل المعرفـة، وبعـد ذلـك عندمـا تـولى مسـئولية الضـوء صـار تابعًـا للرجـال الخارجـين المتربصـين بالسراديـب، وكانـت قـد تمـت مراقبتـه بشـكل مكثـف، وذلـك بأوامـر مبـاشرة مـن قاعـة التقاريـر، حـتى ارتكـب الطامـة الكـبرى الـتى وضعـت الجميـع في المـأزق الخطـر، إذ أضـاء الطريـق لأعـداء السراديـب، فدخلـوا عـلى حـين غفلـةٍ، وكادوا يفتكـون بالسـيد، كمـا أنـه أبـدى تواطئًـا مـع المتمردين واسـتمع لحكاياتهـم الـتي يدسـون فيهـا السـم في العسـل".

وتنهد الصوت الذي يقرأ التقرير وقال:

- ننتقل إلى البند الثاني.

البند الثاني:

قال الرجل الذي يقود الاجتماع:

- في سبيل البحث عن حل للخروج من الأزمة التي نحن فيها الآن، عليكم أن تقترحوا حلًا يكون مناسبًا

عندما سمعت هذه الجملة قلت في نفسي:

- هذا الصوت ليس غريبًا عني.

ساد صمت ثم جاء صوت من جانب متوارٍ في السرداب، صاحبه لا يريد أن يرى الناس وجهه، وقال بصوت مرتعش:

- نعتذر جميعًا عما فعلنا.

ساد الصمت مرة أخرى حتى بلا هممهة، قبل أن يجيب الصوت الذي يجلس في الظل ويقود الاجتماع:

- حتى لو أردتم الاعتذار، فإن ذلك ليس متاحًا، ابحثوا عن حل حقيقي يمكن أن ينقذكم مما أنتم فيه، بالطبع بعضكم مر بسرداب النسيان فمُحيت ذكرياته وتخرمت ذاكرته، نسي ما أصابه من هؤلاء الذين يقدسون النظام ويعبدونه، نسي اعتراضه على الظلم وخروجه عاريًا دون كفنه.

على الجانب الأيمن وقف رجل طوله واضح وملامحه حادة وصاح:

- لا حل سوى الخروج عليهم نحن عددنا كبير، وهناك سراديب أخرى سيخرج سكانها لو رأونا نخرج ونحرر أنفسنا.

كان وقع كلمة أسلحة غريبًا، ربما لم أفكر فيها من قبل،

علت الهمهمة، ثم سكنت فجأة، وأكمل صوت الذي يقود الاجتماع، أصبح لدينا رأيان، الاعتذار أو المواجهة، وسيتم التصويت في نهاية الاجتماع.

البند الثالث:

أما فيما يتعلق بنقطة البحث عن بداية جديدة يكون منها انطلاقنا لاستعادة وضعنا الذي يليق بنا، فقد تم تأجيلها لما بعد الانتهاء من الاجتماع.

البند الرابع:

قال الرجل الذي يقود الاجتماع:

- قبل التصويت يجب تحديد مجلس موحد لقيادة السراديب الخلفية، حتى نصبح كلمة واحدة في مواجهة كلمتهم الواحدة، ومن يريد أن يرشح نفسه فليتقدم، وأنا عن نفسي أعلن ترشحي لقيادة السراديب الخلفية في حربها.

فجأة ارتفع صوت لم يعرف أحد من أين يأتي:

- لكننا لم نتفق بعد على حرب السراديب.

وللمرة الألف سرت همهمة غامضة في المكان لا أحد يعرف معناها، ويبدو أن المتحدث الذي يجلس في دائرة من الظل ويقود الاجتماع لم يكن متوقعًا المقاطعة، فطال صمته قبل أن ينطق بهدوء:

- لنبدأ التصويت على الطريقة المناسبة للخروج من السراديب الخلفية، هل نعتذر أم نأخذ حقنا بأيدينا؟

وكانت النتيجة لصالح الهجوم المسلح، فعاد الذي يقود الاجتماع بروح معنوية مرتفعة وقال كأنه يطلق إعلان حرب:

- لنتفق على القائد.

وهو يتحدث خرج، فجأة، من دائرة الضوء، ورأيته كان الرجل الذي يقود الاجتماع هو أبي "حامد حمدون" بشحمه ولحمه وانحناءة ظهره ووجه الضامر مرتديًا كفنه.

وعندما تقدم خطوة للأمام وأصبح واضحًا تمامًا بطوله ونحافته، انكفأ فجأة على وجهه، بعد أن زرع أحدهم في ظهره قطعة حديد، وهاج السرداب وحاولت الوصول لأبي، كان الزحام والهرج والمرج على أشده، ولمحت سلمان سليط بالقرب منه، واهتز السرداب ومالت جدرانه وبدأت حجارة سقفه تسقط فوقنا وترابه يدخل أنوفنا وأفواهنا، وحاولت كثيرًا لكنني لم أصل إلى أبي.

وانفض الاجتماع

سرداب العودة

اركبوا الجسر

العـودة، العـودة، العـودة، هـي الكلمـة الأكـثر ترديـدًا في المـكان الآن، أسـمع لهـا دويًّـا يـأكل سـاس الحيطـان المتهالكـة لهـذه الحفـر الخلفيـة المسـماة سراديـب الظـلام، أحيانًـا تـأتي الكلمـة سلسـة مهموسـة تمـر بجانـب أذني، لكـن في معظـم الوقـت تشـبه صرخـة تنفجـر أمـام وجهـي مـن رجـل يصفـع حائطًـا جيريًّـا لأحـد السراديـب، أو ينطـح رأسـه فيـه، ووسـط هـذه الضجـة تسـاءلت:

- كيف سنعود؟

هـل تحركنـا للأمـام أم سرنـا في صـورة دائريـة؟ لا أعـرف، لكـن الـذي أدركتـه أن قلـوب الجميـع قلقـة وأرواحهـم مضطربـة، بالمجمـل كنـا في حالـة حماسـية، لا أعـرف كيـف حـدث هـذا الاحتشـاد، وكيـف أصبحنـا صفوفًـا طويلـة لا تظهـر نهايتهـا، وتسـاءلت أيضًـا:

- كيـف جـاء كل هـذا العـدد الكبـير إلى السراديـب الخلفيـة، ومـا الجريمـة الـتي ارتكبتهـا هـذه الوجـوه لتعيـش ضائعـة مثـلي؟

الخـوف والقلـق واضحـان تمامًـا عـلى الوجـوه المتربـة، وأنـا لـدى غصـة دائمـة، مشـهد أبي مطعونًـا بالحديـد في ظهـره وعينـاه تسـتنجدان بي يؤرقـني، لـدي إحسـاس كبـير بـأن هـذه الحشـود الـتي أسـير بينهـا قتلـت أبي الـذي اختفـى تمامًـا كأنـني كنـت أحلـم بـه، الآن كل مـا أعرفـه أن الخـوف يلتهمـني أكـثر مـن أي وقـت مـضى، لا أعـرف متـى رأيـت أبي آخـر مـرة، كنـا قـد عدنـا إلى القريـة بعـد مـوت أمـي مودعـين شـقتنا الصغـيرة، وظـل هنـاك سـت سـنوات لا يفعـل شـيئًا سـوى زيـارة قبرهـا، كان يسـعى إلى المـوت

بشكل لا يخطئه أحد، كل محاولات إخراجه من حالات الوهن التي أصابته فشلت، إحساسه بالذنب كان كبيرًا وقاتلًا، يجيب السائلين عن حاله بسؤال:

- لا أعرف كيف عشت كل هذه السنوات من بعدها؟!

**

لا أملك، الآن، سوى التحرك وسط الجميع وانتظار ما يحدث وتأمل هذه الأماكن المخيفة، كانت النساء تسير في الصفوف الخلفية، محتفظات بمسافة بينهن والرجال، ورأيت أمي كانت تنظر إليَّ من مكانها البعيد، حاولت أن أصل إليها لكنني لم أستطع، هنا الجميع حاضرون حتى عمي خضير حمدون، يسير متلفتًا حوله، الوحيد الذي لم أجده رغم بحثي المستميت كان «زين».

رأيت من يحفر أسفل الحيطان فتسقط، وفكرت كيف فشلت أنا وزين في فعل هذا الشيء عندما أردنا الوصول لسرداب النساء، يقولون لكل شيء أوان، ونحن سبقنا وقتنا فسقط الحائط علينا وسال الدم من فم «زين» مصحوبًا برغبته في لمس يد امرأة جميلة، ها هي الآن الجدران تنكفئ على وجهها بسهولة ويسر، قاومت رغبتي في دفع جدار وتراجعت منتظرًا أن ينتهي الغبار كي أمر.

من صنع هذه السراديب الخلفية وكيف بناها بهذه الطريقة الملتوية التي تشبه متاهة الفأر؟ حيث سرداب يدخلنا في سرداب وطريق يسلمنا لطريق وحائط يسقط فنرى العشرات تشبهه منصوبة خلفه، وحبات العرق نبتت عند مفرق الرؤوس، وآهات اليأس انطلقت من الشفاه لم يمنعها أحد، والنساء تململن في صفوفهن وتفلت النظام الذي كان، وجلس رجل

واضعًا وجهه بين يديه وبكى، وأنا لأول مرة أصابني الشك في أنني أريد أن أخرج من هذه السراديب.

أمسك «عابد» يدي وصاح وسط الضجة:

- تعالى هناك من يبحث عنك.

لا أريد مقابلة أحد لكنني لم أرفض، كان جدي حمدون يجلس وسط دائرة، لمحت الناس تحتفظ بمسافة بينهم وبينه، وهو يحدثهم عن اللعنة وأنهم سيظلون يدورون في حلقة مفرغة داخل هذه السراديب لو لم يطهروا أيديهم، تحدث وإشارات يديه تكملان كلامه:

- السماح يكون في كل شيء سوى الدم.

أردت أن أقول له: «لقد قتلوا ولدك منذ قليل، طعنوه في ظهره بقطعة حديد»، لكنني لم أقل شيئًا، فنظرته الحادة أجابتني بأنه يغالب ألمه، ولمسته المرتبكة لكفي أكدت أنه لم يعد الجد المخيف الذي كنت أسمع عنه الأساطير قديمًا.

اتخذ عابد هيئة المخطئ وقال في نبرة منكسرة:

- الرجل الذي سال دمه على قبر سلمان سليط لم يكن علي عويس الذي كنت أبحث عنه، لكنني لم أكن أعرف ذلك، كان خضير حمدون.

ارتبك جدي حمدون أكثر، لكنه صمت، وأضاف رجل آخر، والندم الحقيقي واضح على ملامحه:

- قتلت رجلًا لم أره من قبل، لأنني جئت لهذه السراديب الخلفية دون أن أعرف السبب فأردت أن أصنع سببًا حتى أرتاح من سؤال لماذا جئت هنا؟.

وقال رجل لم أر وجهه:

- أسقطت جدارًا على رجلين يحفران أسفله يريدان أن يصلا إلى سرداب النساء، والجميلات كانت تملأهن الرغبة في وصول الرجلين، فأردت أن أطفئها، ورأيت أحدهما والدم يخرج من فمه والرغبة تسيل من عينيه.

تلفّتُ منزعجًا لأبصر الرجل وحاولت التحرك للأمام لألمحه، فأمسك جدي حمدون يدي بقوة وخبأ عينيَّ.

كثرت الاعترافات التي قالها الذين أباحوا الدم، وفى قلبي كبر حقدي على الرجل الذي أسقط الجدار علينا، وتذكرت «زين» وهو غير مصدق ما حدث له، وكيف همس وعيناه تنطفئان:

- لماذا حدث ذلك؟!

وقلت بصوت مشروخ:

- لماذا حدث ذلك؟!

ونظر جدي حمدون إلى جانبه ونفض كفنه وهب واقفًا وهو يردد:

- أكملوا طريقكم وأمام كل جدار تطهروا من آثامكم حتى تصلوا.

وسط هذا القلق ظهرت بسمة من الرضا في عيون البعض، فها نحن نسعى بوعي أو بدونه لتحطيم كبرياء السادة الذين يسكنون في السراديب المضيئة، وألقوا بنا في دهاليز الظلمة ثم ضيعوا المفاتيح في البئر السحيقة ونسونا، ومنذ البداية كان كل واحد فينا يعرف أن أهل السراديب لن يكتفوا بالمشاهدة ونحن نحاول أن نغير أقدارنا ونحطم الجدران،

ونصنع الخلل، لذا نحن نسير وننتظر أن يأتي الهجوم في أي وقت، البعض، وأنا منهم، لم يتوقع النجاح لكنه يبحث عن النهاية.

لم أكن أريد الوصول كنت أريد التيه، لم يكن «هناك» أفضل من «هنا»، فكرت في لحظة أن أعطيهم ظهري وأعود إلى ظلام السراديب وأظل سائرًا كما كان يفعل السائرون في السراديب ربما أتحول إلى شيء، نعم أريد أن أصبح شيئًا، أريد أن...، وكانت صفوف النساء تقترب مني، أرى الجميع جميلات والوجوه معروفة لي كأنني رأيتها من قبل لكن لا أعرف أين؟ والكحل الذي يزين العيون يجعلني أعرفهن أكثر، ليس على وجوههن القلق الذي في روحي، وتساءلت هل ارتكبن خطايا فجئن إلى البوابات الخلفية، لكن أي خطأ ترتكبه الجميلات؟ مررن بجانبي أردت أن تفعلها واحدة منهن وتلمسني، عيونهن مبتسمة وشفاههن تكتم ضحكة وأنا بينهن تصاغ روحي من جديد، روائحهن خفيفة تجعلني أطير في الفضاء.

لأول مرة أبصر أطفالًا يتحركون بين صفوف الرجال والنساء، بين الجد والهزل يتعاملون مع الحكاية، ليست لهم ملامح خاصة، يشبهون الرجال الذين كبروا وصار بعضهم عجائز يتوكأون على ما تبقى لديهم من عزيمة، كأنني لأول مرة آت إلى هنا، فمنذ الطفلة المخطوفة لم أرَ أطفالًا، هل ارتكب هؤلاء أيضًا الخطايا؟! أم حدث ما لم أتخيله، هل التقى هنا رجل وامرأة واطمأنت له لدرجة أنها أسقطت سترها أمامه ومنحته ما أعاد إليه روحه ورد عليه طمأنينته، وانتشى واقفًا بينما الطفل الذي يشبهه يخرج من بين ساقيها ممسكًا يده سائرين معًا في السراديب يعلمه أبجديات الظلام.

ما أشعر به هو أننا نسعى للنهاية بعشوائية، وهذه الأعداد الغفيرة التي لا أرى آخرها دافعها أنها لم تجد شيئًا لتخسره، وتساءلت لماذا لا يخرج كل منا قلبه ويضعه في حفرة كبيرة ثم يضع عليه كميات مهولة من الملح، أما النساء فيزلن الكحل من عيونهن ويصرن عاديات؟ حينها لن يجد السادة ما يفعلونه وسيصيبهم الضجر وقد يشعلون النار في أكفانهم، لكن من سيحكم السراديب لو حدث ذلك؟ ستصبح خرابًا تنعق فيها الغربان والبوم ومرتعًا للصوص والشحاذين ومأوى لأبناء الحرام والقتلة وسافكي الدم والداعرين، لذا لا يجب أن ننتحر علينا أن نصل وإن أراد السادة أن ينتحروا فليفعلوا ذلك لكن ليس على حسابنا.

لم تظهر أي بشائر للوصول، تحول السير لغاية في حد ذاته، فالأطفال يتابعون مرحهم الحذر، والنساء يبحثن عن شيء غير واضح، والأكفان المهترئة تهدلت والحماسة تفلتت، وصوت جدي العجوز يحث الناس على المتابعة، لكن صوته كان مشروخًا ليس له صدى ولا أثر في الأرواح التي سكنها الوهن، لا أمام يظهر فنتبعه ولا وراء يبدو فنعود إليه، زاغت العيون تمامًا، فقط الوحيدون الذين كانوا يمارسون عملهم بلا تأثر هم مسقطو الجدران لم يصبهم شيء من اليأس، ينقضون على أي جدار يأكلون ساسه فيسقط فينتقلون للآخر حتى صاح أحدهم:

- ليس أمامنا سوى هذا الجدار.

وسرت الجملة في الحشد فخشينا أن نلتقط أنفاسنا بينما تحولت قلوبنا لطبول حرب.

العمر الرابع

ذاكرة تغطيها الحلفا

خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا[٦]

بعد سقوط الجدار الأخير اندفعنا، دون نظام للأمام كنهر تحطمت آخر سدوده، نريد أن نرى لحظات الانكسار في عيون السادة وأتباعهم، كانت البوابة الأخيرة ضيقة، فتزاحمنا واصطدمنا وسقط الضعفاء منّا أسفل أقدامنا الجافة، صرخاتنا بدائية، والأطفال يبكون والنساء يطلقن الزغاريد والنشيج في وقت واحد، لكن الساحات المتسعة وقاعة التقارير والسراديب كلها خاوية تمامًا، لا أثر لإنسان أو حيوان أو حشرة، وحطت الحسرة في أرواحنا وناحت.

هل فسد الأمر؟ وضاعت التصورات التي كانت وقود اندفاعنا من السراديب الخلفية للانقضاض على السادة؟ هل ستنطفئ صورة النصر في داخلنا؟ ونجلس أسفل السراديب لا فارق بين ما كنا فيه وما فعلناه؟

لم نستسلم بسهولة، ظننا أن هذه خدعة الحرب، فأعدنا تنظيم الصفوف وتحركنا جماعات، فتحنا كل الأبواب المغلقة وحطمنا كل الأقفال الصدئة، وكشفنا كل المغاليق، وقبضنا في أيدينا على قطع من الحجارة مسننة ودخلنا بحذر قاعة التقارير، وسرنا في دروب السائرين وعكسها، وفي النهاية قلنا جميعًا:

- لا أحد هنا.

قررنا أن نحتفل بالفوز، حاولنا أن نقنع أنفسنا بأن السيد وجنوده فروا عندما سمعوا قبضاتنا القوية تتوالى على الجدران

---

٦ - مفتتحات العصر الرابع آيات قرآنية.

تهدمها، وأصابهم الرعب عندما علموا من جواسيسهم أننا نتقدم بخطى ثابتة ناحيتهم، وأحسوا أننا لن نُبقي عليهم، ومثل نساء عاجزات هربوا، كنت أتمنى أن أرى السيد يهرول ممسكًا تلابيب كفنه مصطدمًا بالأشياء ومتخبطًا في الجدران.

دخلت قاعة التقارير، كان صرير بابها مزعجًا، شعرت بالارتباك القديم الذي أصابني عندما دخلتها أول مرة، وكأن قرونًا مرت على ذلك اليوم، أتذكر أنني فيها شاهدت ابتسامة الموت، وعندما دخلتها للمرة الثانية بعدما استدعاني السيد ليشرح لي دوري في حراسة الضوء كان داخلي منطفئًا تمامًا ورغبتي الوحيدة هي أن أختفي، وعندما دخلتها بعد ذلك ليُلقى القبض عليَّ وأسقط في السراديب الخلفية كنت مقهورًا وأريد أن أكسر رأسي على جدارها، وها أنا عدت إليها بروح متحمسة تريد أن تعيش لحظة تشفٍ، لكن عندما لمست يدي الكرسي الحجري الذي كان السيد يجلس عليه قديمًا وهو يبحث عن الضوء المتخفي في داخلي، رأيت أثر عنكبوت نسج خيوطه المتشابكة في كل مكان بالغرفة الواسعة، وتذكرت السيد بطوله الفارع وكفنه الجديد، ها هو التراب يجلس مكانه الآن، تراب كثيف يدل على أن الكرسي مهجور وصاحبه اختفى منذ قرون وليس فزعًا من مجيئنا، فانطفأت روحي مرة أخرى.

القادمون من السراديب الخلفية يجلسون يتامى أمام القاعات وفي السراديب، تحطمت أحلامهم في رؤية النصر أو الهزيمة، يدركون تمامًا أنه لا نصر بلا عدو، كل الذي فعلوه لا قيمة له ما لم يروا أثره في عيون الآخرين، كانوا يحلمون بدمعة في عين السيد، وبكاء في صوت الحراس، تمنوا أن يطلب منهم السائرون في السراديب المسامحة فيسامحونهم. أن يسيروا في

السراديب مشية المنتصر، لكن كل ذلك ضاع، لا أحد هنا ليشاهد فعلهم، لذا انطفأت شهيتهم للحياة وجلسوا منكسي الرؤوس كأنهم أسرى حرب، يفكرون في لحظة خروجهم من هنا للسراديب الخلفية قديمًا وأيادي الحراس تحني لهم رؤوسهم حتى لا يروا سوى أقدامهم، والناس يرجمونهم بالحجارة ويلعنونهم.

الجميع يفكرون في سؤال واحد.. أين ذهب الناس؛ السادة والجنود والتابعون والسائرون في السراديب والمتورطون والأبرياء؟ وفتح باب الاحتمالات مصراعيه على الجميع، ربما خُسفت بهم الأرض، لو حدث ذلك لشعرنا في مكاننا البعيد باهتزازة قوية، وحتما لتصدعت سراديبنا وذابت مثل تل رمل وخرجنا نحن بسهولة، لكننا حفرنا بأيدينا الحجر الصلد وحطمنا الجدران، وها هي الأرض كما تركناها، والجدران بنقوشها وجيرها الأصفر، لذا فإن الخسف لم يحدث.

أين ذهبوا؟ بالطبع لم يتفش مرضٌ، لأنه لو حدث لترك أثره في المكان، كنا سنشم رائحة الوجع، وسنسمع الأنات المكتومة وسنرى الجدران تحمل أثر الدعاء بالشفاء، أو تقيؤ أحدهم، كانوا حينها سيعرفون أن دعوة مظلومٍ قد استجيب لها، فيقفون بهزالهم الشديد من المرض أمام قاعة التقارير ويصيحون في السيد: «هناك مظلوم في السراديب الخلفية، أطلقَ دعوته في هيئة الألم، فأعد له حقه»، لكن ذلك لم يحدث.

أين ذهبوا؟ لا حرب قامت هنا، ليتها قامت معركة كبيرة وكان العدو فيها شرسًا لا يعرف رحمة ولا يغفر لصغيرٍ أو كبيرٍ، هجم من كل بوابات السراديب مرة واحدة، فأصابت

الدهشةُ أهلَ المكان، وعندما انتشر القتل والتقطيع في ناس السراديب، وصاح قائد العدو الذي يخبئ وجهه تحت قناع حديدي له قرنا شيطان:

- لا أريد أسرى.

وعندما ضاقت على السيد ورجاله الدائرة تذكرونا، فصرخ وهو يختبئ في خندقٍ أعدُّوه له:

- افتحوا السراديب الخلفية وأعيدوا رجالها ونساءها ليشاركونا الحرب.

لكن ذلك لم يحدث.

إذن أين ذهبوا؟ الأطفال فقط لم يتوقفوا كثيرا أمام السؤال، بعثوا الحياة مرة أخرى في قلب المكان الكئيب الذي كان يشبه كهفًا مهجورًا من مئات السنين، جعلوه ينتفض من ثباته، وعادت الحركةُ للسراديب وصار لزامًا علينا أن نبحث عن سبل للمعيشة بعد أن فقدنا ما كنا نمني به أنفسنا لو استولينا على خزائن السيد، وفجأة تذكرنا جميعًا أننا كنا نبحث عن البشر ولم نبحث أصلًا عن هذه الخزائن، فعدنا مرة أخرى لقاعة التقارير.

كان عمي خضير حمدون وسلمان سليط يتزاحمان أمام مدخل القاعة، التي أصبحت ممتلئة بوجوه لم أرها من قبل، حتمًا كان أصحابها يقضون عقوباتهم في سراديب خلفية أخرى لم أذهب إليها، لكن هذا الزحام في القاعة لم يجعلنا قادرين على البحث عن شيء يدلنا على الطريق، وفي الوقت المناسب ظهر الرجل الذي كان مزروعًا في خندقه، لا يزال محمولا على أعناق الرجال، وخلفه جدي حمدون، وراحا يقنعان الناس

بالخروج وحاول عمي خصير البقاء معتمدًا على سلطة أبيه الذي نهره فخرج غاضبًا يلعن الجميع، في النهاية لم يبق غيري وهما، الرجل أو ما تبقى منه محمولًا على محفته، وجدي يقلب عينيه في المكان، كانتا تلمعان بشغفٍ، يعرف كل ركن فيها، يقترب من الكراسي الحجرية ويلمسها بأنامله في شوق كشفته الرجفة الواضحة التي أصابته، ينفض التراب، يكاد يقبل الجدران، ينسى وجودنا وتمتلئ عيناه بالدمع، وفي النهاية هدأ وقال:

- لنبدأ البحث.

عادت الأسئلة مرة أخرى لتطل بوجهها القلق، ما الذي سنبحث عنه؟ هل يظن الرجلان أننا عندما نرفع هذه البلاطة سوف نجد الهاربين يختبئون تحتها مرعوبين من مجيئنا فنخرجهم مثل فئران أصابها البلل؟ أم أننا سنبحث عن النفق الذي حفروه ليهربوا خوفًا من بطشنا بهم؟ الغرفة صامتة تمامًا، كل ما فيها يشير إلى أنها مهجورة منذ سنين عديدة، لو قلت مائة عام أو أكثر لن ينكر أحدهما قولي.

لا أعرف علاقة جدي بالمكان، لكنه مأخوذ جدا بما يرى، والرجل المزروع فى خندقه وجَّه إليَّ كلامه:

- هذه قاعة الحكم، منها تخرج كل التقارير التي يلتزم بها أهل السراديب، ومن يخالفها يكون مصيره في سراديب الخوف والموت المتكرر، لذا لابد من وجود مهرب لسادتها لو ضاقت بهم السبل، قديما كنت أعرف المخابئ جميعًا، لكنهم بدلوها بعد ذلك، ابحث عنها لكنك لن تجد طريقًا أو ممرًا، فقط سوف تجد ورقة.

- «ورقة».. أبحثُ عن ورقة وسط كل هذا التراب والركام، في

غرفة لم يظهر فيها نتوء في أي من جدرانها، وتشبه كل غرف السراديب الأخرى، لا شُباك ولا خزينة ولا شيء مميزٌ.

أصبحت أنا الذي يقلب عينيه في الغرفة بينما جدي حمدون ينفض التراب على الكراسي الحجرية، وكلما نظّف كرسيًّا جلس عليه ثم يضع ساقًا على ساق، لكنه يهب فجأة ويبدأ في تنظيف كرسي آخر، وأخيرًا هتف:

- أسفل هذا الكرسي توجد الورقة.

لم أصدق جدي ولم أتوقع منه أن يطالبني بالحفر أسفل الكرسي الحجري، لأن الأمر ليس سهلًا، فالأرضية كانت معبدة بالصخور الصغيرة، وصلابتها واضحة لا تحتاج إلى اختبار، وليس في يدي معول ولن أحفر بحجر مسنون، وتذكرت الحفر الذي فعلناه من قبل أنا و«زين»، وشاهدت للمرة الألف السرداب وهو ينهار على رأسينا، و«زين» يمد يده في محاولة للنجاة والوصول إلى سرداب الجميلات المنتظرات، وسال دم عينيه دموعًا في داخلي، وتخيلتني أحفر أسفل الكرسي الحجري فيسقط على رأسي، وقلت في نفسي: لن أحفر شيئًا.

أفقت من خيالاتي على جدي حمدون يدير الكرسي دورة خفيفة فيتحرك من مكانه بسهولة ليكشف عن فجوة خفيفة في الأرض ممتلئة بأشياء كثيرة ملقاة دون نظام، أوراق صفراء تآكلت أطرافها، وبقايا كفن، ومسبحة خشبية حال لونها تمامًا فعادت للون الشجرة التي أتت منها، وزجاجات صغيرة متشابهة، وكيس من الكتان به بذور نباتية صغيرة جدًا تشبه بذور البرسيم لكن لونها أخضر بصورة لم أرها من قبل، مد جدي حمدون يده وتناول الأوراق الصفراء، وفي غفلة منه مددت يدي وتناولت كيس البذور الغريبة.

كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً

كانت العيون خارج قاعة التقارير تنظر إلينا كأننا وجدنا كنزًا مخفيًّا، وتقاسمناه أنا والرجل المحمول على محفته وجدي حمدون، راحت الحشود تقلبنا، وتمنيت ألا يروا كيس البذور الذي أخفيه داخل كفني، وقال جدي:

- لدينا ما نقوله لكم، اجتمعوا في الساحة.

**

لم تعد الساحة قادرة على استيعاب هذا العدد غير المحدود، حتى النساء ظهرن مرة ثانية، ووقفن في نهاية المكان، الجميع وأنا منهم ينتظرون ما سيقال، فالورقة الصفراء متآكلة الأطراف مع جدي، لمحت أصابعه تتحرك فوقها كأنه يربت عليها يهدئها، أو يستحثها ويستنطقها، الكل ينظر إلى وجهه، أنا الوحيد الذي يتطلع إلى يده، ودون أن يطلب صمت الناس وانتهى الصخب، حينها بسط الورقة أمامنا وتكلم بصوت حاول أن يجعله خشنًا بعض الشيء:

- وجدنا داخل الغرفة رسالة تركها لنا أصحاب السراديب الأمامية.

قال ذلك ودفعها إليَّ لأقرأها، أمسكت بها وحاولت أن يكون صوتي متزنًا وأنا أقرأ:

- «لم يعد الأمان متاحًا، الدخلاء سيحفرون عميقًا في قلب السراديب، وسيلقون صخورهم في بيوتنا، وسيجمعون رفاتنا في أجولة، ويدفنونها في حفرة أو يشعلون فيها النار، لذا سوف نهجر المنامات بحثًا عن أخرى غير مهددة».

عندما قرأت جملة «أو يشعلون فيها النار» اهتز جسدي في عنف، وتصاعد «وهج حارق» من داخلي، كأنما أصابتني نسعة نار فجأة، وطاردتني التهويمات السابقة التي يتداخل فيها الخيال بالواقع، رأيت، بعين خيالي، كأنني أشاهد آخر غيري يشبهني تمامًا، يخرجونه من قبره ملفوفًا بكفنه الجديد، ووجوه صدئة من الكآبة والحزن، تحيط به، تقلب رفاته بأيادٍ مرتعشة مترددة، وكلمات عن التراجع والحرام والذنب تسري بينهم، لكنها تموت بمجرد خروجها، إذ تصطدم بنظرة قاسية من سعد سليط، ثم انتشرت رائحة البنزين على الجسد المستسلم، وتلعثم أحدهم وهو يخرج علبة الثقاب من جيب جلبابه، وبعد انطفاء العود الأول اشتعل الثاني الذي كان اصطدامه بالورقة الكرتونية يشبه اصطدام سيارة كبيرة بجبل، وتحولت الرفات بسبب البنزين إلى كتلة من اللهب برائحة القسوة والذنب.

عندما أفقت من هذه التهويمات كان الارتباك هو الأبرز في الساحة، فبعد أن قرأت الرسالة، خيم صمت غريب، صمت يفكر، يتمنى، يقلق، يصيبه الرعب، تمنيت أن أجرحه، أن أقول: «هذه الرسالة فخ، كتبها السيد وجنوده ورجاله بمكرهم الكبير حتى لا يقترب أحد من المنامات»، لكن لو قلت ذلك لوجبت عليَّ الإجابة عن سؤال: أين ذهبوا؟.

هرب السيد وجنوده والجميع من السراديب لأن هناك من يهدم المنامات على رؤوسهم، وجدتني أتخيل الفزع الذي أصاب السيد وجنوده عندما سمعوا صوت اللوادر الهادرة التي بدأت عملها في ثقب قلب الجبانات، كما تذكرت الرجال الغرباء الذين رأيتهم من قبل في قاعة التقارير، عندما

استدعاني السيد، بعد اختياري مسئولًا عن الضوء، كانوا يتحدثون عن القادمين من بعيد، وكان السيد مرتبكًا تمامًا، حتى أنني لمحت دمعة في عينه واختناقًا في صوته ورغبة في البكاء، كان السيد حينها ضعيفًا قليل الحيلة، ودع الغرباء متمنيًا ألا يحدث شيء، لكن يبدو أنه حدث.

الورقة الصفراء متآكلة الأطراف لم تقل أين ذهب الناس، هل غادروا إلى منامات بعيدة ضيوفًا على آخرين، أم حفروا خندقًا بعيدًا في الأرض لا تصل إليه آلات الحفر التي ستخترق كل شيء.

تركت الجمع الملتف حول جدي العجوز والرجل الجالس على محفته، وسرت في السراديب المختلفة، تقريبًا مررت بها جميعًا، وذهبت إلى أماكن لم أرها من قبل، وبدأ عقلي يتضح بطريقة خروج الجميع، وجلست أسفل جدار في مواجهتي حائط جيري شاهدت عليه من قبل رسومات لطفلٍ يقف مرة ناظرًا إلى أفق بعيد، وفي رسمة أخرى يضحك حتى تبرز أسنانه الصغيرة المتراصة في انسجام حلو، وعلى طرف اللوحة كان الطفل يرفع عينيه في هلع وبقعة مختلفة تسيل من صدره وينظر في اتجاه رجل محطم الكيان هزيل الجسد، وفي رسمة أخرى الرجل الهزيل يبكي ويحثو التراب على رأسه، هذه المرة أضيفت للجدارية رسمة للطفل يبكي كأنها مرسومة منذ دقائق، بينما كان وجه الرجل هذه المرة عبارة عن تقلصات بكاء، وعينا الطفل تبحثان عن نجدة، تنبهت للمرة الأولى إلى الجهة التي كان ينظر إليها الطفل، ورأيته يتجاوز جسد الرجل ويحدق في شيء آخر خلف ظهره، كانت دائرة سوداء، قمت من مكاني ونزعت قشرتها الجيرية، فانفتح باب على سرداب من الظلام.

السرداب المظلم يثير الخوف، وتخيلت الجميع يفرون عبره لا يرون شيئًا، يسيرون فقط إلى الأمام، تطاردهم أصوات متوحشة لكائنات حديدية بدأت في ثقب عالمهم، كانوا يندفعون يتساقطون وينهضون، مثلي عندما ألقي بي في السراديب الخلفية، كانت الظلمة تأكلني، أصطدم بجدران جيرية أشم رائحتها، رائحة الزمن القديم الذي لا أول له ولا آخر، رائحة عرق خائف تتفصد عن أجساد كثيرة مرت من هنا، تسير مندفعة للأمام بلا هدى، تود الفرار فقط حتى لو إلى الجحيم.

كان وجهي يسيل عرقه بغزارة، وفي داخلي اكتملت خيوط ما حدث في ذلك اليوم، أغمضت عيني وشاهدت الرجال الغرباء يعودون مرة ثانية، هذه المرة كان عددهم خمسة، أربعة يحيطون برجل، طويل نحيف هيبته حاضرة، لكنْ على وجوه الجميع انكسار، توتر الناس في السراديب عندما رأوهم، دخلوا قاعة التقارير، وانغلق الباب لوقت طال، في هذه اللحظة كان سرب من السائرين فى السراديب يسير وفجأة توقف أحدهم أمام قاعة التقارير وجلس، بما يعد سابقة لم تحدث من قبل، وتبعه آخرون، وعندما فتح السيد الباب بوجهه الشاحب وعينيه الزائغتين كانت الساحة أمام قاعة التقارير ممتلئة، لا أول لها ولا آخر، أصابته المفاجأة فتلعثم قبل أن يفجعهم:

- لا مكان لنا هنا، سنخرج منها عندما يخفت الضوء.

ما الذي قاله الرجال الخمسة للسيد ليخرج مهتزًا بهذا الشكل الغريب، ويعلن الرحيل ولا يحدد وجهة للخروج، العيون المتواجدة أمام القاعة، قبل خروج السيد، أرادت أن تخترق

المكان وتبصر التعبيرات المختلفة لملامح الرجال الستة، والآذان التصقت بجدران القاعة تتنصت على ما يحدث، شخص واحد فقط هو الذي استمع للحوار كاملًا، ولم يقل لأحد شيئًا - لكنه عندما غادروا السراديب بعد ذلك - غيَّر هذا الرجل بحجر مسنون صورة الطفل الباكي على الجدار فجعله ينظر خلف ظهر الرجل.

باب السرداب الذي خرجوا منه مغلق ومطلي بالجير، بما يعني أن من فعل ذلك تخَّلف عنهم، ولم يخرج معهم، بل ظل في السراديب، لذا عليَّ البحث عنه، لأنه الوحيد القادر على تأكيد ما تخيلته أو نفيه وتكذيبه، حتما هو موجود بيننا، لكن العثور عليه شاق؛ لأنه لا يختلف عنا في شيء، ربما دخل بيننا بعد العودة، وربما يعرف مكمنًا جديدًا لا نعرفه في هذه المتاهة، وبينما أنعطف قليلًا في طريقٍ جانبي همس صوت بجانب أذني:

- اتبعني.

موعود أنا بالدوران في السراديب، والآن أتبع صوتًا، نبرته معروفة لي، تحديدًا يمكن القول إنه ليس غريبًا تمامًا، هذا الصوت استمعت إليه من قبل، شكرته في داخلي أنه لم يتركني في انشغالي كثيرًا، قال لي:

- «لا ترهق نفسك، أنا «حليم» تتذكر أنني حملت جثة أخي على ظهري سنة كاملة، وأن آخر ما حكيته لك من قبل هو أنني وجدت نفسي حزينًا جدًا، فاخترت أن أتولى «الضوء» ظنًا أنه سيخلصني من «حزني» لكن يومًا بعد يوم أصبح جسدي يشف وبدأ جلدي يرق وأحشائي تظهر تحت الجلد كثيرة وصاخبة، لذا بدأت ألف الكفن الذي أرتديه على كل جسدي

حتى أنه لم يتبق شيء في جسدي النحيل ظاهرًا، حتى رأسي غطيتها تمامًا بالشاش الأبيض، كان يزعجني جدًا أنني أتكشف أمام نفسي بهذا الشكل الغريب، لكن الأمر لم يتوقف، لقد اختفيت تمامًا، بعد أن افترقنا أنا وأخي «زين».

لما سمعت اسم «زين» انطبقت السراديب عليّ وضاع هواؤها وسمعت دويًّا هائلًا، وفي الوقت نفسه الذي كرهت الصوت وأردت أن أقبض عليه بيدي وأخنقه، تمنيت أن ألمسه وأبكي على صدره، وأن أقول له «زين» مات مرتين وأكثر، وأن يرتفع صوت نشيجي وأنا أقول:

- هو الوحيد الذي أفتقده هنا، بلكنته المحببة وطريقته الشهية في الحديث عن النساء.

لم أتخيل أن «زين» كان مسكونًا بهذه الهموم ولم يقل لي شيئًا عنها، كنت بين النشوة والغضب، لقد أصبحت أعرف حكايته كاملة؛ طفولته وشبابه ومقتله وألمه، تخيلته، في اليوم المنحوس، بدأ صباحه بوجهه الضاحك، حتمًا كان يسير في الدروب يبحث عن صوت أنثوي، يجدد به صباحه، لم يكن يعرف أن القرية كلها نامت ليلتها الفائتة مضمرة أمرًا رهيبًا، أن تقتله، ولم يعرف أنه في نهاية اليوم ستكون عيناه ممتلئتين بالدمع وهو يبحث في الساحة عمن ينقذه من القتل، بعد أن اتهمه الناس بالعبث بنسائهم وتهريبهن ليعملن عاهرات في المدينة، كان الدمع حينها مالحًا لزجًا، وعندما اصطدم الحجر برأسه زاغت عيناه الممتلئة بالدم، لكنه حتمًا رأى أخاه القاتل وودَّ لو سأله: «كيف سولت لك نفسك قتل أخيك؟» أتذكره نشيطًا متحمسًا عندما بدأنا الحفر، أنا وهو، في السرداب الموصل للنساء الجميلات

اللاتي كن يضحكن على الطرف الآخر يشجعنه، وعندما سقط الجدار على ظهره فانكسر وسال الدم من فمه كانت عيناه أيضا ممتلئتين بالدمع والدم المختلط ببريق الشهوة الذي رأيته يسيل على خديه، وفى نظرته دهشة غريبة وكلام، لا بد أنه أراد أن يقول لي:

- النساء قتلنني مرتين.

هل قال الصوت شيئًا لم أتنبه إليه لأنني كنت أفكر في «زين»، حتمًا حدثني عن الندم وشجونه، لكن حائلًا من الصد صار بيننا، قال:

- أنتم أيضا يجب أن تختفوا.

وقبل أن أسأله عن شيء انطلق دوي هائل في المكان واهتزت السراديب بشكل عنيف ثم سكنت، وكان صوت طفل فقد أمه، في التو، يصرخ في مكان ليس بعيدًا.

امرأة تبكي وموت يمسح دمعها

وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

صرخة الطفل التي جرحت سكون السراديب، ومنحتني شعور اليتم، ليست جديدة عليَّ، سمعتها من قبل، صداها لا يزال يتردد داخل قلبي، يقول لي: إن ذلك حدث قديمًا، وإنني صرخت هكذا وهم يخرجون بجثمان أمي من الشقة التي كنّا نعيش فيها على أطراف المدينة الكبيرة.

**

أتذكر الآن، قبل يومين من خروج جثمانها عادت أمي للبيت بعد غيابها شهورًا في المستشفى، طرقت باب الشقة، وفتح أبي الباب نصف فتحة ثم التفت إلي وقال:

- اختبئ.

اختبأت، ومن غرفة الضيوف ومن موقعي بين الدولاب وكنبة معدة لنوم أقاربنا القادمين من البلد، سمعتها تقول:

- جئت أرى ابنتي.

قال لها وصوته ينم عن كظمه الغيظ:

- ابنتك ضاعت منذ سنين، ارحمي نفسك وارحمينا.

من مخبئي تمنيت رؤيتها، أن ألقي بنفسي في حضنها، خالفت نصيحة أبي وخرجت عليها، وبين الخوف والفرح اقتربت حتى صرت أمامها تمامًا لو مدت ذراعيها لاحتوتني ودفنت وجهي في صدرها وبكيت، لكنها لم ترني، مررت أمامها كأنني غبار طريق، أمسك أبي يدي وعيناي تدمعان وقربني منها:

- فاضل يريد أن يسلم عليك.

لم تكن عيناها تستقران على شيء، وبعصبية زائدة قامت ودخلت غرفة النوم وقالت:

- سأنتظرها.

**

ليلة موتها كانت دافئة، وموسيقى حزينة تنبعث من تلفزيون شقة جارتنا التي تعيش وحيدة، وأنا بين النوم واليقظة، انتابني شعور غريب بأن أفعل شيئًا، هل سمعتها تغمغم باسمي، هل طلبت مني المساعدة؟ قبل أن تدخل غرفتها هل نظرت إليَّ بطرف عينها واعتذر دمعها نيابة عنها؟ شهور لم أرها منذ اشتد مرضها وأصبحت تنزل للشوارع تبحث عن أختي التي ضاعت منها، تستوقف الناس وتقبل أيديهم وتسألهم أن يدلوها على مكان ابنتها، تحت الضغط الشديد من الجميع أدخلها أبي مصحة نفسية، عادت منها منذ يومين قضتهما في غرفتها لم تخرج منها أبدًا.

عندما خرجتُ أنا من الغرفة أدركت أن أبي لم يعد للبيت، والصالة متخففة من كل شيء إلا صورة معلقة على الحائط، أمي تجلس فيها على كرسي بلا ظهر، وأختي التي تكبرني بخمس سنوات، والتي لم يعرف أحدٌ في أي أرض تعيش، تجلس على ساق أمي وأنا على الأخرى، كان الشبه بيني وأختي كبيرًا، خاصة في رسمة العينين، وفجأة أطلت الفكرة برأسي فانتفضت ونظرت بعيدًا، لكن الفكرة مثل شيطانٍ يرفض أن يتحرك، دخلتُ غرفتي فدخلتْ معي، حاولت النوم فمنعتني، كانت الممثلة في الفيلم التلفزيوني الذي يأتي صوته من بيت جارتنا تصرخ والموسيقى الحزينة يزداد إيقاعها، هل كان صوت الممثلة تصرخ: «حاضر.. حاضر»، أم أنه صوت أمي في غرفتها

تنادي: «فاضل.. فاضل».

الفكرة الغريبة زاد إيقاعها أيضًا، إنها تطاردني باستماتة، وفجأة من شباك غرفتي المفتوح دخل عصفورٌ، لم أتعرف عليه، وانطلق مسرعًا إلى داخل الشقة الصغيرة، ولم أعرف أين استقر هل ذهب إلى المطبخ أم أنه دخل غرفة أمي المغلقُ بابها؟

في الدولاب الخشبي الصغير كانت أغطية الرأس الخاصة بأمي مرصوصةً في انتظار تنفيذ الفكرة، ليس في داخلي شرٌ أو خيرٌ، لست أنا الذي يُفكر، هناك من يفعل ذلك نيابة عني، وأمام المرآة التي اسودَّت أطرافها وتقشَّرت بدأتُ إحكام الغطاء على رأسي، وأكملت ما فعلته بعباءة قديمة لأمي، كان باب غرفتها نصف مفتوحٍ، فاندهشتُ ودخلتُ عليها وهي نائمة، جسدي يرتجف ويديَّ متيبسة فلم أطرق الباب قبل الدخول.

كنت مسكونًا بالخوف فلم أقل شيئًا، اقتربت منها وهي نائمة معطية ظهرها للباب، حبات العرق كشفت توتري، وفي اللحظة التي فكرت فيها بالتراجع التفتت ناحيتي، الضوء مشتعلٌ، وعيونها رائقة للمرة الأولى منذ زمن، رغم أن الدمع حفر في وجهها نهرين عميقين لدرجة الغرق، اعتدلت بعض الشيء ومدت يدها ولمست رأسي وقالت بخفوت:

- لا تغيبي مرة أخرى.

وقاربت ابتسامتها من الضحك، ثم أعطتني ظهرها مرة أخرى، واتخذت هيئة الجنين بشكل أكثر انقباضًا، تراجعت بظهري وقبل خروجي من الباب سمعت زقزقة العصفور بجانب سريرها.

في غرفتي، التي لا أعرف كيف ذهبت إليها، كان جسدي كله يرتجف، أطفأت النور وجلست في الظلام متحمسًا خائفًا قلقًا، حتى صوت التليفزيون اختفى تمامًا، وجاء أبي متأخرًا، سمعت خطواته تتجه ناحية غرفة أمي لكنه خرج مسرعًا، وفتح باب غرفتي، وقال بحزن لم أعرفه من قبل:

- أمك ماتت يا فاضل.

أعترف الآن، بأنني شممت رائحة الموت عندما كنت في غرفتها، بل رأيته، دخل معي لكنه انفصل عني واقترب منها أكثر، وقفتُ بجانب السرير بينما جلس هو بجانبها ومد يده ومسح دمعها، كان فتى يشبهني تمامًا، أراد أن يحقق لها رغبتها فارتدى ثياب بنت كانت لهما طلة العينين ولونهما، اقترب منها وهمس في أذنها، فضحكت ثم صمتت، فمسح دمعتها الأخيرة التي نزلت من العين وسارت على الخد ثم توقفت ولم يصل ملحها للفم أبدًا، أوقفها في منتصف المسافة تقريبًا، هذه الدمعة كانت تبرق وتلمع بشكل مختلف انعكس عليها ضوء اللمبة الوحيدة في الغرفة فأبصرت بداخلها ضحكة طويلة لها ذيل، أضاءت الدمعة ثم انطفأت عندما امتدت يد الموت فأزالتها.

كنت من غرفتي أسمع صوت أبي يُجري بعض الاتصالات الضرورية، مفزوعًا أضم ركبتي إلى صدري، في هيئة جنين، وأقول لنفسي:

- هل قتلتها؟ هل قتلت أمي؟ انتقمت منها لأنها تجاهلتني طوال عمرها، لأنها لم ترني أبدًا، انتقمت منها ومن أختي، اليوم فقط عرفت أن لها الحق في إنكاري. أنا منحتها الموت عضضت قلبها حتى سال دمه، قسوت عليه بما يكفي ليموت

فتموت هي.

أقول لنفسي:

- لا لم أفعل، بل أردت أن أجعلها سعيدة، رأيت ابتسامتها التي كادت تكون ضحكة، رأيتها بدون دمعة لأول مرة، منحتها ما كانت تحتاج إليه، كانت تريد أن ترى أختي وفعلت ذلك من أجلها، اطمأنت إلى أنها عادت إلى البيت فاستراح قلبها المتعب ونام.

أقول لنفسي:

- هل تستطيع أن تقول لأبيك ما حدث؟

أقول لنفسي:

- لا.. لا.. لا أستطيع.

أقول لنفسي:

- إذا فقد قتلتها.

لم تمرّ عليّ ليلة مشابهة مثل هذه أبدًا، جاء بعض الجيران ودخلت امرأتان إلى غرفة أمي ولم تخرجا، وعرفت أن أعمامي تحركوا من البلد قادمين لكنهم لن يصلوا قبل الصباح، كان أعمامي وجدتي لا يحبون أمي، يقولون عليها مجنونة، مع أنها لم تؤذهم أبدًا، ولم تتنبه لحضورهم أو غيابهم من الأساس، رفض أبي تطليقها وإعادتها إلى بيت أهلها، رغم إلحاحهم، قال:

- كانت زينة النساء لم أر منها إلا كل طيب والمرض ابتلاء من الله.

كنت دائمًا أرى أبي يتأمل صورتها المعلقة على الحائط، لا

يهتم بالولد والبنت الجالسين على ساقيها، عيناه تتعلقان بوجهها، فيبتسم:

- تعرف يا فاضل.. أمك كان يريد أن يتزوجها مهندس يعمل في شركة الكهرباء لكنها رفضته، ورغم أن الناس قالوا لها عنى أني ابن قاطع طريق وعائلتي قتلة ومجرمون وشاربو دم، إلا أنها ردت عليهم «حامد» قلبه رهيف مثل عصفور.

هذه الليلة كان صامتًا يتحرك ببطء يرفع عينيه إلى الصورة يتأملها، فقمت من مكاني وأحضرتها، قربها من وجهه الشاحب، مشى بأصبعه المرتجف على وجهها، تشنج وجهه ونزلت دمعاته على الزجاج فانفجرت شظايا كثيرة معظمها جاء على وجه أمي، وقبل أن يجهش بالبكاء كنت قد احتوينه في صدري فبكى مثل طفل، وعرفت حينها أنه انطفأ تمامًا، وبدأ يذبل.

عندما جاء أعمامي في الصباح، على وجوههم أثر التعب وليس الحزن، وأنهوا كل شيء، كان أبي صامتًا لم يُعلق، وظل لا يحب الكلام الكثير ست سنوات بعد ذلك، لم يثرثر سوى مرات قليلة فى إحداها حكي لي عن نبات الحلفا الذي تحبه القبور.

عندما خرجوا بجثمان أمي لسيارة نقل الموتى التي كان عمي الصغير لا يزال يساوم على أجرتها، صرختُ وصرختُ وصرختُ ولمحت إطار الصورة يصيبه شرخ كبير، كنت أبكي أبي وأمي معًا وعرفت أنني أصبحت يتيمًا وقاتلًا.

إلى السراديب التي أتذكر فيها شيئًا كاملًا بكل التفاصيل، أمي وأبي وأعمامي وشقتنا الصغيرة التي على أطراف مدينة كبيرة، كانت صرخة الطفل التي جرحت سكون السراديب هي السبب في كل ذلك، بحثت عنه فلم أجده، لكن رأسي ظل دافئًا من أثر لمسة أمي القديمة.

اعترافات تحيي القلب وتميت الخوف

لا يُجزي والدٌ عن ولده شيئًا

هنا، التراب يصبغ كل شيء، إننا نتنفسه طوال الوقت ويضفى لونًا معتمًا على الأشياء، نختنق، ولا بد من حل لننجو من الخطر الذي أصبح واضحًا تمامًا، هناك من يهدم المنامات ويريد أن يمحوها، والصوت المخيف يتكرر مرات ومرات وكل مرة أقسى من سابقتها، لقد أصبحت اللوادر والحفارات على بعد خطوة منَّا، حركتها مفزعة كأنها وحوش تأكل الأرض من أطرافها.

التقيت الجميع يجلسون في حلقة تشبه تلك التي رأيتها أول مرة عند مجيئي السراديب، ينصتون لأحدهم يتحدث، أفسح لي عمي خضير مكانًا بجانبه فجلست.

**

يحكي خضير حمدون، فيما يشبه الاعتراف، والهلع مرسوم على ملامحه والشيب خط فوديه تمامًا:

- عرفت أن «العايقة» امرأتي ستأتي قريبًا، إنها تنتظر ملاك الموت منذ أسابيع، لكنه يخشى مواجهتها ويرسل إليها إشارات صغيرة، في البداية أخذ الحياة من ذراعها وساقها ثم عاد ليأخذ الحياة من إحدى عينيها فلم تعد «فاطمة» ابنتنا الصغرى قادرة على فتحها ووضع الكحل فيها، كانت تزمجر بفمها الملتوي الذي أعاقه الموت خشية أن تقبض عليه بأسنانها فلا تتركه.

يقول عمي خضير حمدون:

- رغم كل ما فعلته لكنني لم أعشق سوى العايقة كان الجميع يظنونها بلا قلب، تزوجتها «تخليص حق» بين أبي وأبيها، وعرفت منذ الليلة الأولى أنها فرسة جامحة وأن قلبها بدأ يتفتح مثل نبتة.

يتنهد خضير حمدون ويتلفت حوله يخشى مجيء أبيه:

- كان أبي وحنفي الطايع أبوها يعملان معًا قاتلين مأجورين، والطايع هو من يتفق على الأجر مع أصحاب الدم، فيقبض جزءًا من المال عربونًا ثم يتحصل على البقية بعد الانتهاء تمامًا، لم يكن أبي يشكك في ذمة صاحبه، والطايع في الحقيقة لم يكن يتأخر أبدًا، ما أن يسمع صوت الأنين ثم صراخ الأهل معلنين نجاح عملية القتل حتى يبتسم ويخرج ما في جيبه لأبي ثم يعود إلى من استأجرهما ويحاسبه، لكنهما في يوم ما اختلفا.

يبتسم خضير ويمد ساقيه أمامه ويمسد عليهما ويعود يحكي:

- بالطبع لم يسألا عن سبب القتل هما ينفذان فقط، وذات مرة قتلا رجلًا مُقعدًا لا يتحرك كأنه مزروع في مكانه، فاعتبرها أبي إهانة لتاريخه وأشفق على الرجل العاجز، لذا بعد أن أنهى المهمة انطلق غاضبًا ولم يأخذ حقه، وظل أيامًا طويلة صامتًا لا يكلم أحدًا، وفي صلاة الجمعة سمع خطيب المسجد يقول: «إن الله يغفر للجميع لكنه لا يغفر للقاتل حتى يسامحه القتيل»، فقال أبي: «وكيف يسامحني القتيل بعد موته»، ثم قال في نفسه: «ما دام الله سيحاسبني على قتل الرجل المُقعد إذًا آخذ حقي من حنفي الطايع»، وأرسلني لآتي له بأجرة يده وحق بندقيته في عملية القتل.

يقول عمي خضير وهو يضحك:

- حنفي الطايع ظن أن أبي لا يريد ماله فاشترى به «أفيون» وفى ليلة وثانية قضى عليه كله، وجلس ينتظر فيض الله بعملية قتل جديدة، وقال لي: «سأعوض أباك في المرة المقبلة»، لكنني خفت إن عدت لأبي خالي الوفاض أن يقتلني، كنت أفكر في ذلك عندما دخلت علينا العايقة ممسكة بندقية أبيها بعدما نظفتها ومسحت عنها ما علق بها من تراب وصراخ وموتى.

تكسرت نبرات عمي خضير:

- هي في الحقيقة لم تدخل علينا بل هجمت على المكان، تعلقت عيناي بها ولم أعد أرى شيئًا آخر، أحسست بها ساخنة مثل بندقية أطلقت رصاصتها في التو، عودها شهوة خالصة، وعيناها المكحلتان فوهتان، وصدرها رصاصتان، ولسانها زناد، وأعتقد أن حنفي الطايع كان لا يزال تحت تأثير الأفيون، لأنه عندما وجدني مصلوبًا أمام توحشها قال: «العايقة ابنتي.. خذها».

**

انتظر الجميع أن يكمل عمي الحكاية لكنه صمت، فتململ «هاشم» في مكانه وحاول ثني ساقه المعطوبة تحته وكأنه مسكون بالجن وبكى:

- ماتت النبية.

فزمجر «عابد»:

- قُل العاهرة.

لم يلتفت إليه هاشم وأكمل:

- بعد مجيء البحر، وصدق كلامها، صرت لا أفارقها أبدًا،

وعندما اتخذتم القرار بالعودة للسراديب الأمامية، كان كياني كله يرفض ذلك، كنت أعرف أن شيئًا ما سيحدث، والنبية لم تكن موافقة أيضًا، قالت: «الظلمة ستزداد»، فشعرت بالخوف، وبعد الاجتماع الأخير الذي بدأت بعده المسيرة المشئومة ناحية الخراب الذي أنتم فيه الآن، قلت في نفسي: «ما الذي أريده من النبية؟» يصفني الناس بـ«التابع» وهذا لا يضايقني، لكنني أريد أكثر من ذلك، أريد أن أكون الحبيب والوريث، وبينما الجميع منهمكون في اتخاذ القرار الخطأ كنت أسألها: «هل تتزوجينني يا نبية»، لا أعرف هل ضحكت مستمتعة أم مستهزئة، لكنها قالت: «وهل أنت نبي لتتزوج النبية؟»، في الصباح وبينما الصفوف تتحرك للأمام كان حجرٌ قد استقر في رأسها لم أقدر على إخراجه رغم محاولاتي الكثيرة، أعتقد أن يد الرب كانت ثقيلة في الانتقام منها، حملتها وسرت بها ناحية البحر، وهناك فاض الماء واقترب مني، كان يغلي ويفور ويزبد، وسمعت صوته في داخلي هادرًا: «سيطاردك دمها».

لم أتخيل أبدًا أن يكون «هاشم» قاتلًا، ملامحه وخجله وتلعثمه وحبه وإيمانه المفرط بنبيته كل ذلك لا يفسر النهاية التي يحكي عنها يقول:

- أشعر بروحها داخلي، أعرف الآن شعور المرأة التي يختبئ جنين في رحمها، لم يكن لها وريث غيري، حكمتها خرجت من رأسها المكسور ودخلت قلبي سأقول لكم ما تفعلون، سأتحدث بلساني وقلبها.

يقاطعه «عابد»:

- هذه العاهرة كان كلامها هراءً وكذبًا.

يتلعثم هاشم:

- لكننا الآن ضائعون كما قالت.

نرتبك بشدة، لكن رغبة سلمان سليط أن يحكي كانت واضحة فزبد فمه كان يدل على أول القول.

**

سلمان سليط، قوي مثل ثور، هذا ما شهد به ملاك الموت قبل ذلك في لحظة فارقة جمعتهما، يجلس بيننا الآن كأنه يقف أمام قاضي محكمة، يتحدث وهو مشدود الأطراف وعروق عنقه نافرة ووجهه محتقن:

- كنت ظل أخي سعد سليط، الذي ما أن يشير بطرف بندقيته «افعل» فأطيع بلا سؤال ولا جواب، كم حرقت زروعًا وسرقت ماشيةً وأفزعت نساء ورجالًا دون أن أعرف السبب وراء ذلك، لكن حظنا أننا وبيت «حمدون» كنا من النوع نفسه نعيش على جثث الناس نأكل قوتهم ونسكر آخر الليل بدمهم ونتسلى بحكاياتهم الحزينة وسير نسائهم.

يقول سلمان سليط وهو يرنو إلى عمي:

- أصبح الناس يستغربون لو مر عام ولم يقتل منا أو منهم أحد، وهكذا سارت الأيام حتى استيقظت ذات يوم من النوم مفزوعًا، بينما صوت علي رزق من المسجد يقول: «الصلاة خيرٌ من النوم»، ويكررها ربما ثلاث أو أربع مرات، لا أعرف ما الذي دفعني للاستيقاظ مبكرًا مع أنني لم أنم إلا متأخرًا، في بيتنا لا يُصلى أحد سوى أمي و»سعد» يذهب إلى صلاة الجمعة حتى يفسح الناس له مكانًا في الصفوف الأمامية، كان الحشيش لا يزال يعبئ رأسي، وخرجت على أطراف أصابعي ووقفت في الصف الوحيد بينما علي رزق يقرأ: «ولسوف

يعطيك ربك فترضى».

عندما عدت للبيت لم أكن أريد النوم كنت منتشيًا وتذكرت يومًا قديمًا قضيناه في مولد الشيخ سلمان أبو علي[٧]، فقد جاءنا في الليل من يُخبرنا أنا وأولاد عمي بألا نعود إلى البيت الليلة، لأن بيت «حمدون» يعدُّون لنا كمينًا عند كوبري الترعة العمياء[٨]، ولما تأخر الليل وانفض السامر دخلت إلى المقام الموجود خلف المسجد وقبعت في أحد الأركان ثم غلبني النوم فنمت أو هكذا ظننت.

توتر سلمان سليط بشكل واضح، وهو يضيف:

- انفتح باب الضريح وخرج منه رجل عليه رداء أخضر ويعلق في عنقه مسبحة خشبية كبيرة، واقترب مني حتى شممت رائحة المسك، وقال لي: «مكانك ليس هنا»، صحوت مفزوعًا: الشيخ سلمان أبو على طردني من مقامه، خرجت في الليل وكان المؤذن وقتها يدعو الناس لصلاة الفجر لكنني لم ألتفت، كنت غاضبًا من طرد الشيخ لي، وعدت للبيت قبل الصباح وقلت في نفسي: لا مكان لي سوى مع «سعد» نشرب الدم ونأكل لحم الميت والحي، ومرت سنوات طويلة كنت فيها سيف سعد وبندقيته، حتى كان ذلك الفجر الذي حدثتكم عنه وذهبت للصلاة وتذكرت حكايتي مع الشيخ وشعرت بعد مرور قرابة ثلاثين عاما بأن الشيخ قال لي: مكانك ليس هناك، أحسست بأنه كان يدعوني للبقاء، كأنه يحدثني الآن كانت عيناه المكحلتان تطلبان مني البقاء بينما أهم منصرفًا.

بكلمات نادمة أكمل سلمان سليط:

---

٧ - من أولياء الله الصالحين في الصعيد له مقام مشهور.
٨ - مكان بين قريتين لا يقصده إلا أصحاب الحاجات.

في الصباح خرجت وفي قلبي أنني سأعود لصلاة الظهر، عندما قابلني ابن أخي وقال لي:

- خضير حمدون يسرقنا في عز الظهر.

حينها ألقيت الطمأنينة من قلبي وقلت:

- يسرى الظلم فيهم مسرى الدم.

هذه المرة توترت أنا وخشيت أن يقوم ويشتبك «سلمان» مع عمي خضير، لكنه صمت وصمت الجميع قبل أن يقول:

- عندما انطلقت الرصاصة ناحيتي شعرت بإحساس غريب بأنني أريد العودة إلى المسجد، وشاهدت ملك الموت قادمًا من أول الحقل يهم ناحيتي، عرفته منذ اللحظة الأولى وعندما كشف «المَلَك» عن يديه لينزع بهما روحي قلت له: «أريد الذهاب إلى المسجد»، وقاومته حتى نبتت حبات عرق صغيرة على جبهته فاستسلمت.

**

هل توقع الناس مشاجرة تسفر عن جريمة جديدة بين سلمان سليط وعمي خضير، فالنظرات الجانبية كانت محرضة بالفعل، لكن علي عويس الذي كان يجلس بعيدًا عن "عابد" تململ في جلسته وكأنه أدرك أن خطرًا سوف يقع لو ظل الجميع صامتين، فتدخل فجأة:

- نعم قتلت عابد.

كانت بدايات "عابد" مجهولة لنا جميعًا، كنا نريد أن نعرف لماذا ثقب له علي عويس قلبه وأشعل في روحه النار.

تابع علي عويس:

- كنت أسكن بالقرب من هذه المنامات، في كل يوم بالليل والنهار أسمع صراخًا وأرى نعوشًا، من بيتي رأيت قبورًا تتحول إلى كتل من النار، ورأيت طاقات نور تتفتح في منامات أخرى، لم أفكر يومًا في قتل أحد، لكن "عابد" جاءني أسفل البيت وطلب مني أن أقتله فقتلته.

هل اشتعلت أعيننا بسبب الحكاية؟ هل وقف "عابد" على قدميه صارخًا يريد أن يعرف أصل الحكاية؟ وعندما همَّ علي عويس بالكلام الشافي دخل الرجل المزروع في خندقه محمولًا على محفته، وكأنه معنا منذ البداية، قال:

- تحكون عن السابق وتنسون ما أنتم فيه الآن، هناك من يفزع وجودكم ولا يفكر في شيء من حكاياتكم وسيجمع ما تبقى منكم في أجولة ويلقي بها في حفرة ضيقة.

صاح عمي خضير حمدون مفزوعًا، وكأنه يعرف هذا الكلام للمرة الأولى:

- يريدون ألا تجد العايقة مكانًا هنا عندما تأتي، أريد بندقية.

بينما فكرت أنا في "زين" كيف سيضيع للأبد في هذه المتاهات.

صار البحث عن حل أمرًا لا مفر منه، الكثيرون يريدون العودة للسراديب الخلفية، ولو أخبرتهم عن النفق الذي فر منه السابقون، سوف يتكالبون عليه، ولن يبقى واحد منهم ليدافع عن أي شيء، لذا أخفيته ولم أخبر أحدًا، وعمي خضير يريد بندقية من أين سنحصل عليها؟ لابد من حيل أخرى لإيقاف ذلك الخراب الذي قالت به النبية.

يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

كان عمي الصغير "شوقي" الذي تزوج في غرفتي بعد موتي، نائمًا عندما دخلت إليه من الشباك المغلق وهززت قدمه فتنبه، قلت له:

- لا تجعلهم يهدمون المنامات.

وقبل أن يستيقظ تمامًا قفزت من النافذة مهرولًا ناحية الجبانة، والصباح لم يأت بعد.

**

في ليلة تربصت بقطار "مخزِّن" في "ملوي" عند الفجر كان قادمًا من المدينة الكبيرة ومتجهًا إلى القرى البعيدة التي لا يعرفها سوى سكانها، دخلت عربةً كلُّ من فيها نائمون أو يتظاهرون بالنوم، طفت عليهم جميعًا، وهمست في آذانهم أن يتحدثوا عن حرمة هدم المقابر.

**

في ليلة زرت سعد سليط لم يكن نائمًا، بندقيته تتمدد بين ساقيه وشاربه يتدلى داخل فمه، وركوة نار تثير في المكان دفئًا، ورجلٌ لا أعرفه يصنع الشاي بهدوء ممل، وطفل رأيته من قبل يقاوم النعاس باصطياد الأشباح التي تمر مسرعة أمام باب المندرة المفتوح، اقتربت من سعد سليط والخوف لا يفارقني، نظرت في عينيه المحفورتين وقلت:

- سيلقون عظام سلمان للكلاب.

فانتفض سعد سليط، وسأل الرجل الذي يصنع الشاي:- لماذا

لا تبحث الحكومة عن مكان آخر بعيدًا عن الميتين وراحتهم.

ثم قبض على بندقيته ومسَّدها في عنف.

**

عدت مرة أخرى للبيت الكبير، شاهدت الموت يحوم حول البوابة الخشبية العتيقة ولا يملك جرأة الدخول، كان شعور بالصقيع غير جميل ينتشر في الداخل، والصبح على وشك المجيء، والكلاب لم تتقبل دخولي الدرب بسهولة، أعلنت رفضها صراحة، وصوت علي رزق يخرج من المسجد بعد صلاة الفجر ويغلق الباب، دخلت غرفة جدتي، انتهت من صلاتها جالسة منذ قليل، رفعت يديها ودعت للميتين جميعًا، كانت قائمة الموتى طويلة، جئت على لسانها بعد أبي وقبل جدي، كان اسم أمي الأخير في سلسلة المرحومين، ثم صمتت قليلًا بما يكفى لالتقاط نفسٍ عميق والتغلب على شيء ما في نفسها ورفعت ذراعيها للسماء أكثر وهتفت:

- سامحتك يا عايقة.

في هذه اللحظة تحركت فراشة لها ألف لون من وراء الدولاب القديم، وخرجت من الغرفة صاعدة للطابق الثاني ناحية غرفة "العايقة" لتضع حدًا لعذابها، فانصرفتُ ولم أقل شيئًا.

**

عندما صعدت الفراشة ذات الألف لون إلى غرفة "العايقة" كان عمي خضير يقف بجانب سريرها يتطلع إليها بحنوٍ بالغ، بناتها في الغرفة يمسحن العرق السائل، لم يرينه، هي فقط تراه بعينها المشلولة، تمد يدها تريد أن تمسك به، لكن شيئًا ما يمنعها، هو لا يعرف مشاعره في تلك اللحظة، سعيد

لأنها ستكون قريبة منه، وحزين لأنه لا يتخيل "العايقة" التي كانت فرسة نافرة، في أيام قليلة أصابها الموت من كل جانب، ونصب حولها شباكه المؤلمة، وهيّض أجنحتها تمامًا وخاض معها حربًا غير متكافئة بالمرة، وجعل المرأة ذات الشعر المحنى والكحلة الدائمة تنتظر رحمة فراشة صغيرة لها ألف لون.

**

فكرت في الذهاب إلى المدينة الكبيرة البعيدة لأثير الناس هناك ضد من يريدون هدم المنامات، لكنني أعرف أن أحدًا لن يهتم، فلا أحد يعرفني في الشوارع الكبيرة رغم سيري الطويل فيها، وأصحاب الشقق الضيقة لن يتذكروني لأنهم يفقدون ذاكرتهم كل مساء، وإن حدثتهم عن الموتى سيختلط عليهم الأمر في فهم المقصود، وأنا لا أعرف سوى جارتي التي كانت تعيش وحيدة وهي لا تحب الموت ولا سيرته.

**

في السراديب كان التوتر يلقى ظلاله كاملة على الجميع، صوت الهدم متواصل، والمقابر الواقعة على الأطراف انتهت بعد أن حطمتها الآلات المتوحشة والرجال فاقدو القلوب، وتهدمت بعض السراديب الجانبية، وصارت الساحات الكبرى ممتلئة بالخوف، وهمس "حليم" في أذني أن أدل الناس على سرداب الهروب، وأنا كلما تأملت الوجوه الشاحبة المصفرة فكرت في ذلك، لكنني لا أقو على فعله، حتى بعد أن رأيت الرجل المزروع في خندقه وهو محمول على محفته يتطلع لباب الهروب، وتأكدت من كونه يعرف السرداب السري، وهو، أيضًا، لا يريد أن يخبر به أحدًا، لأسباب بالطبع تختلف عن

أسبابي، أنا أريد أن نبقى ونقاوم، وهو يريد أن يعيش دور القائد، إذا دعه يعيش فيه، حتى ننتهي من هذا الأمر، فلا وقت للشقاق الآن، المهم ألا نقول للناس كيف يهربون.

**

يقول الجالسون في ظل اللوادر والحفارات وهم يشربون الشاي ويتأملون القبور الممتدة بلا نهاية أمامهم:

- لا نريد هدم الجبانة، لكن حظ الناس والموتى هنا أن الذين رسموا الطريق التي ستصل للبحر الأحمر، والتي تربط سوهاج بأسيوط جعلوها تمر في قلب المقابر، وأن أصحاب النفوذ استطاعوا أن يحفظوا قبورهم بعيدًا عن هذا الهتك الكبير، لكن الأمر لم ينجح مع الآخرين.

ويضيف أحدهم:

- سنجمع الرفات والعظام ونكفنها من جديد ونصلي عليها مرة أخرى ونبني لها قبورًا جديدة على حافة الطريق.

وبكت امرأة عجوز كانت تجلس بجانب قبرين طينيين قديمين:

- تفرقون بين أمي وأبي بعد 60 عامًا على موتهما.

**

توالت الاجتماعات في السراديب، الجميع يشاركون فيها، أعدادٌ مهولة لا حصر لها، اعترف الجميع بأنهم فشلوا رغم أنهم تسللوا ليلًا وثقبوا عجلات اللوادر وسيارات النقل التابعة للشركة، لكن لم يتأثر أحدٌ، في الصباح كان العاملون آكلو الحرام يبدلون ما تم ثقبه بأخرى جديدة، وعندما ظهرنا في المنامات للحراس وأثرنا في قلوبهم الرعب بالكوابيس المخيفة،

واستيقظوا خائفين فزعين وحكوا للمهندسين والمسئولين عما رأوه طردوهم من العمل، ولما أقمنا المهرجانات وأشعلنا السماء بالتهاويم ردوا علينا بأن حولوًّا ليل الجبانة إلى نهار بفضل اللمبات الكبيرة التي جعلت كل كبيرةٍ وصغيرةٍ مرئية.

استعرض جدي حمدون كلَّ هذه الأشياء أمامنا، وعندما قال "عابد":

- نستسلم ونعترف بأنه لا حلّ أمامنا وأننا سننتهي مجموعة من العظام المتهالكة في أجولة بالية.

نظر إليه جدي طويلًا، وصمتنا نحن، قبل أن يقول له

- حتما هناك حلول أخرى سوف نعرفها قبل فوات الأوان، ليبحث كل واحد فينا عن حل لهذه الأزمة التي تتطلب قلبًا واحدًا، استمعوا إلى نفوسكم التي لا تزال تخفق برغبتكم في الاستمرار في هذه السراديب.

هل حقًّا نريد أن نبقى في هذه السراديب؟ فجأة أخذ تفكيري اتجاهًا مغايرًا، ما الذي يدفعني للبقاء هنا؟ فصاح جدي:

طالما لديكم إحساس بكراهية المكان والحقد عليه لن تستطيعوا الوصول لحل، صَفوا نفوسكم.

قلت في نفسي وأنا أنظر في ظلمة السرداب:

- ما الذي يدفعني للبقاء هنا، كل الأشياء السيئة رأيتها في هذه السراديب، الخوف والرعب وتحمل المسئولية، هنا رأيت أبي مطعونًا بقطعة حديد في ظهره - أبي الذي كان أرق مخلوق -عرفت أنه تعذب في السراديب الخلفية، وهنا سمعت سخرية السيد وجنوده مني، وهنا مات "زين" أمام عيني وتركني أعيش إحساسًا بالذنب لا يفارقني، وهنا قابلت جدي ورأيته

مغايرًا تمامًا لكل ما كانوا يحكونه عنه من قبل، وحتى أمي لا أعرف كيف ألتقي بها مرة أخرى، هنا رأيت كل الأشياء التي من الممكن أن تفقدني عقلي تمامًا.

لكنني، قلت في نفسي، وأنا لم أزل أتأمل في ظلمة السراديب:

- الحكاية أكبر من مجرد مكان سيخرجوننا منه، فهنا وجدت نفسي، ورأيت قتلة وأبرياء يسيرون معا لا تعرف كيف تفرق بينهم، وأحسست بأنني قادر على قول ما أود قوله، هنا تخلصت من الألم القاتل ومن كوني ضعيفًا، هنا لدي سر ولن أشي به للآخرين، ولدي أيضًا كيس من البذور الغريبة.

كان عمي خضير يعيش حالة من الإثارة في انتظار العايقة فلم يُعلق، أما "عابد" فاعترف لي: "لا أريد أن أكون هنا"، قال: "تعبت، أريد أن أصبح مجموعة عظام ملقاة في مكانٍ بعيدٍ، كانت حكايته غير المكتملة عن سبب مقتله لا تزال تؤرقه، خاصة أن علي عويس اختفى تماما ولم نعثر عليه.

قال "هاشم" بصوت جهوري عذب كأنما يحكي حكاية جميلة:

- لا أريد أن أترك هنا لقد وجدت شعبي، سأحكي لهم حكايات عن نبية لم تحب النبي فأرسلها إلى الله مبكرًا.

أما الرجل المحمول على محفته فقال لي وعيناه تخترقان روحي:

- سأقول لك عن كيس البذور الذي تخبئه داخل قلبك.

على طريق الحلفا للمرة الأخيرة

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ

خرجنا في وضح النهار، ملامحنا ممتلئة بالغضب وأيدينا مشدودة على حجارة مسننة، كنا صفين لا آخر لنا، رجال ونساء وصبية، فتحنا باب السرداب الصدئ وواجهنا الشمس الحارقة والآلات المتوحشة التي تنخر في أحشائنا.. وصرخنا.

**

الجبانة في النهار تعبدُ الصمت، تجعل منه وحشها المتربص الذي تخيف به الجميع، لا يكسر طقوس عبادته سوى امرأة عجوز اعتادت زيارة المقابر، أو رجل فاته موت أمه، لأنه كان مسافرًا، وها هو يعود بعد عشرة أيام فينهنه أمام قبرها طالبًا منها أن تسامحه.

**

في هذا اليوم خرجنا معلنين ثورة ضد الناس والآلات التي تشق طريقًا على أجسادنا، كان عمي "خضير" يستعد لاستقبال "العايقة" التي ماتت بعد أن استقرت فراشةٌ لها ألف لون على وجهها، ورغم أن نصف وجهها مصابٌ بالشلل إلا أن الموجودين حولها في انتظار الرحمة لها سمعوها بشكل واضح وبنبرات مكتملة تقول:

- خذني معك يا "خضير".

لذا عندما فكروا في مكان دفنها، وهل ستكون أول من يدفن في الجبانة الجديدة التي حددتها الحكومة بدلًا من القديمة التي ستمحوها اللوادر، صرخت ابنتها فاطمة:

- ادفنوها بجانب أبي.

وصاح عمي "خضير":

- لو دفنوها بعيدًا سوف آخذ أرواحهم جميعًا.

عندما قال عمي ذلك كان يقف قرب غرفة أمه التي أحست به، وربما رأت دمعته فاتكأت على عصاتها وخرجت تسب وتلعن زمن الكسر وأنصاف الرجال، تقول وتتحسر على الرجال الموتى الذين يهانون في قبورهم، الذين كان الواحد فيهم يُخيف عائلة كاملة، فنهرها عمي الصغير "شوقي":

- عودي إلى غرفتك، نحن نعرف ما نفعل.

فسبته وعادت.

**

منذ الصباح الباكر ارتدى خضير حمدون كفنًا، وفعلنا مثله، ووقفنا صفين طويلين لا نهاية لنا، وقلنا "لنفعل ما نقدر عليه وزيادة"، وها نحن في صحراء الجبانة ننتظر ما الذي سيحدث مع "العايقة".

**

أصبحت "العايقة" جاهزة تمامًا للخروج من البيت الذي دخلته "تخليص حق" ومنحت عمرها وأنوثتها وصحتها كاملة لرجل موتور مندفع سارق وقاتل وشاهد زور ومستعلٍ على خلق الله، لكنه أحبها كما لم يفعل أحد، كانت كارثته عندما قَتل سلمان سليط، وفتح مجارى الدم مرة أخرى، وصار هروبه ضرورة، لكنهم وجدوه بعد أيام ميتًا على قبر سلمان سليط، فبينما كان يسير هو وأخوها يتحدثان عن الصلح خرج ظلٌ

مـن المقابـر وصـاح بـه:

-لماذا ثقبت قلبي؟

يومهـا أخـذوا العايقـة لترى جسـده الميت فحسـبته نائمًـا، حاولت أن تبـكي أو أن تتظاهـر بالبـكاء، لكنهـا لـم تسـتطع، لمحـت أمـه ذلـك فظنتهـا وراء مقتلـه، لكنهـا لـم تكـن كذلـك، يومهـا وهـى تنحـني عـلى جسـده شـعرت بـه يهمـس في قلبهـا:

- سأنتظرك.

يـوم موتهـا بعدمـا صرخـت باسـمه ورأت الفراشـة الملونـة تحـط عـلى فمهـا، وصرخـت بناتهـا معلنـات حلـول المـوت، خلـت الغرفـة إلا مـن خضـير أمسـك يدهـا وقـال:

- سأعود غدًا.

خـرج هـو ودخلـت امرأتـان خلعتـا عنهـا ثيابهـا كاملـة وسـترتا جسـدها بغطـاء حريـري وبدأتـا الغُسـل، تركتهمـا تعبثـان في جسـدها ولـم تهتـم، إلا عندمـا همـت إحداهـن بإزالـة الكحـل مـن عينهـا السـليمة وحاولـت هـي أن ترفـض وأن تبـكي وأن تقـول أي شيء لـم تسـتطع، فشـعرت بالعجـز وأخـذت تنـادي "خضير"، لكنـه كان قـد ذهـب، بعـد أن انتهتـا وألبسـتاها كفنهـا بطبقاتـه المتعـددة وصـولًا إلى الطبقـة الأخـيرة خـضراء اللـون وسُكبتا العطـور فوقهـا وخرجتـا، ظلـت هـي وحيـدة خائفـة قلقـة تنتظـر.

كان الجـدل في الصبـاح كبـيرًا، حـضر العجـوز "حنفـي الطايـع" مسـنودًا بـين حفيديـن بعدمـا مسـح الأفيـون ذاكرتـه تمامـا، لكنـه منـذ الصبـاح ينـادي عـلى "العايقـة"، وعندمـا دخلـوا بـه إلى مأتمها يحمـل أحـد أحفـاده كفنـا لعمتـه "العايقـة" وذهبـوا بـه، حيـث يجتمـع النـاس في انتظـار الخـروج قـال بحـروف غـير واضحـة:

- ابنـتي لا تدفـن وحيـدة في جبانـة جديـدة فتخـرج الـكلاب جسـدها وتأكلـه.

وفي الطرف البعيد كان "شـوقي" يعـرف أنـه لـو سـار بنعـش زوجـة أخيـه لمكان الجبانـة القديمـة سـوف يصطـدم بالحكومـة وهـو لا يريـد ذلـك، زاد الـكلام وقـل، حـتى دخـل "سـعد سـليط" فسـكت الجميـع في انتظـار القـول الفصـل.

**

لـم تتخيـل "العايقـة" أن تخـرج البلـدة كلهـا خلفهـا، وأن جنازتهـا لـن يكـون لهـا أول ولا آخـر، كان خضـير حمـدون يقـود الجميـع دون أن يرونـه، يمسـك بناصيـة النعـش ويحركـه ناحيـة الجبانـة القديمـة، حـاول النـاس الخـروج مـن الطريـق العـام لكنـه جذبهـم بشـدة ناحيـة طريـق الحلفـا المهجـورة الـتي لا يسـير فيهـا سـوى المضطـر.

كان "سـعدني" بحمـاره وعربتـه الخشـبية وبهـا قليـل مـن العظـم آخـر المنضمـين للجنـازة عندمـا التقاهـم عـلى المفـرق بـين الجبانـة وطريـق الحلفـا، بينمـا "شـوقي" وسـعد سـليط ورجالهمـا مسـلحون ببنـادق مسـتعدة لتقـول كلمتهـا في هـذا الصبـاح.

كنـت أنـا ومعـي "عابـد" نسـاعد النـاس الذيـن يجهـزون القـبر؛ هـو يخـرج الحـصى والحجـارة معهـم، وأنـا آخـذ مـن البـذور الغريبـة وأزرع الحلفـا عـلى حـواف القـبر وفي الطريـق المؤديـة إليـه أروح وأجـيء بـلا تعـب.

ومن بعيد كان صوت خضير حمدون يعلو والناس تردد وراءه:

-الله يا دايم هو الدائم.. ولا دايم غير الله.

**

أحمد إبراهيم الشريف

روائي وصحفي مصري، فاز بجائزة ساويرس الثقافية 2015 عن روايته الأولى " موسم الكبك" الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. حاصل على الماجستير فى الأدب والنقد.

صدر له:

- "موسم الكبك"، رواية، الطبعة الثانية عن مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر 2016.

- "الخطاب الشعري عند نجيب سرور" عن الهيئة المصرية العامة للكتاب 2016.

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

طريق الحَلفا

في رواية "طريق الحلفا" عدد لا بأس به من الحكايات التي تدور حول "الحياة والموت والرحمة والرحلة والسرداب والحب والهروب والوصول والأهل، والفقد، والمكان والزمان" كل ذلك لا يأتي في صوت زاعق لكنه يسكن في قلب الحكاية التي تنمو طوال الوقت.

فى الرواية صراع بين عائلة "حمدون" بتاريخها الدموي و عائلة "سليط" عنيفة الطباع، بينما يسعى "فاضل" الذي يمنحه المرض فرصةً لتأمل حياته، أن يمر بشكل آمن وسط هذه الحكايات المشحونة بالتوتر.

يحاول فاضل ومعه جميع شخصيات الرواية أن يُعيدوا تشكيل عالمهم بالتعرف على تفاصيله التى مرت على "طريق الحلفا".

تناقش الرواية فى إطار من التشويق، حياة وموت "فاضل حامد" وذلك في بيئة ذات خصوصية تنتمي إلى عالم الصعيد، حيث "القسوة وإنكار العاطفة" هناك شيء طبيعي يتفق مع كل الأشياء الموجودة.

أحمد إبراهيم الشريف

روائي وصحفي مصري، فاز بجائزة ساويرس الثقافية ٢٠١٥ عن روايته الأولى " موسم الكبك" الصادرة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة. حاصل على الماجستير فى الأدب والنقد.